المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم
جامعة الملك فيصل
قسم اللغة العربية – كلية الآداب

الحوار

في نماذج من مقامات بديع الزمان الهمذاني

-مقاربة تداولية-

إعداد الطالب/
فايز بن ذياب بن هزاع الشمري

قدّمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في تخصص الأدب والنقد
بقسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة الملك فيصل

١٤٣٧ – ١٤٣٨هـ

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم
جامعة الملك فيصل
قسم اللغة العربية – كلية الآداب

الحوار

في نماذج من مقامات بديع الزمان الهمذاني

-مقاربة تداولية-

إعداد الطالب/
فايز بن ذياب بن هزاع الشمري

إشراف الدكتور/ عثمان محمد عثمان الحاج كنّه

قدّمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في تخصص الأدب والنقد
بقسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة الملك فيصل
١٤٣٧ – ١٤٣٨هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى والديَّ الكريمين

راجيًا من الله برّهما.

إلى إخوتي وأخواتي

حافظًا لهم الود والعهد.

إلى زوجتي العزيزة

شاكرًا لها الصبر والتشجيع.

إلى ابنتي بلقيس

الحب كله.

ملخص البحث

لقد مثّل الحوار في مقامات بديع الزمان الهمذاني مكونَا فنيًا ملائمًا لتمرير العديد من الأفكار والتصورات التي حملها المؤلف تجاه مجتمعه والحياة من حوله، وقد جاءت هذه الدراسة لتبحث في هذا المكون الفني وتصنّف أشكاله التي جاء عليها، لكي تكشف بعد ذلك عن الغايات التي أراد بديع الزمان الهمذاني إيصالها إلى متلقي مقاماته.

ومن أجل ذلك فقد استخدمت هذه الدراسة المنهج التداولي بوصفه منهجًا نقديًا يملك الطاقة اللازمة على إعطاء تصوّر حقيقي عن غايات بديع الزمان الهمذاني، حيث وظّفت الدراسة نظريتَين علميتين تعدّان من أشهر نظريات المنهج التداولي، هما نظرية أفعال الكلام لجون أوستين ونظرية الاستلزام الحواري لبول غرايس، حيث ساهمت كلتا النظريتين في تحديد مواقع الحوار داخل مقامات الهمذاني بالإضافة إلى استجلاء الوظائف التداولية الكبرى التي كانت من ضمن الغايات التي سعت إليها الدراسة.

ويُتوقع لهذه الدراسة أن تظفر بنتائج عدة، من أهمها:

- الكشف عن التوجهات الفكرية التي عُني بها بديع الزمان الهمذاني وحاول إيصالها للمتلقي عن طريق الحوار.
- الوصول إلى تصوّر حقيقي للحياة الاعتيادية التي كان يحياها الإنسان العربي في القرن الرابع الهجري.
- كيف أسهمت الأشكال الحوارية المتعددة في نقل أفكار بديع الزمان الهمذاني وتصوراته.
- مدى نجاعة المناهج النقدية الحديثة في استنطاق المدونات العربية التراثية وكشف خباياه الفكرية المتعددة.

Abstract

The dialogue in **Badi' al-Zamān al-Hamadani maqam** represent a proper artistic Component to convey many of the insights and perceptions Carried by the author to the community and to the life around him. The study is initiated to search this Artistic component and classify the forms it took within the maqam, to detect subsequently the aspects that AL-Hamadani wanted to carry to the recipient.

To achieve this purpose, this study followed the **pragmatics** -which is a critical approach- due to its ability to give a real idea about Badi 'al-Zaman al-Hamadani's objectives. Where the study utilize two will-known scientific theories of **pragmatics, which** are **Locutionary theory** by **John Austin and conversational implicature theory by Paul Grice.** The two theories contributed to determine the sites of dialogue within **al-Hamadani** maqam. In addition to clarifying the major **functionalism parasession** which was among the objectives sought by the study.

This study is expected to gain several outcomes. Some of the substantial outcomes are:

· Detect the intellectual trends that AL-Hamadani cared about and tried and delivery to the recipient through dialogue.

· Reach a realistic perception of normal life, which was experienced by the Arab in the fourth century AH.

· How the various forms of dialogues cooperated in transforming the actual ideas of AL-Hamadani and his perceptions.

· Estimating the efficacy of modern critical approaches in interrogating Arab heritage manuscript, and revealing multiple intellectual mysteries.

عنوان الرسالة: الحوار في مقامات الهمذاني – دراسة تداولية

قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات درجة الماجستير لقسم اللغة العربية تخصص أدب ونقد

اعداد الطالب

فايز بن ذياب الشمري

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ ١٠ صفر ١٤٣٨هـ، الموافق ١٠ نوفمبر ٢٠١٦م، بمقر كلية الآداب - جامعة الملك فيصل بالأحساء، وتمت إجازتها بعد إجراء التعديلات المطلوبة.

أعضاء لجنة المناقشة والحكم على الرسالة

١- د. عثمان محمد عثمان الحاج كنه — مشرفاً ومقررًا.

التوقيع: _____

٢- أ.د عامر المختار الحلواني — ممتحنًا داخليًا.

التوقيع: _____

٣- د. عبد الكريم بن عبد الله محمد العبد الكريم — ممتحنا خارجيًا

التوقيع: _____

رئيس القسم

عبد الله سعد بن فارس الحقباني

١٤٣٨/٢/١٠

عميد الكلية

أ.د. ظافر بن عبد الله الشهري

Scanned by CamScanner

سيرة ذاتية

اسم الباحث: فايز بن ذياب بن هزاع الشمري

الجنسية: سعودي.

تاريخ الميلاد: ١٤٠٥/٣/٢٧هـ، الموافق ١٩٨٤/١٢/١٩م.

المؤهل الأخير: حاصل على بكالوريوس لغة عربية في جامعة الملك فيصل، عام ٢٠٠٨م.

العمل: معلم لغة عربية في الهيئة الملكية بالجبيل الصناعية.

هاتف: ٠٠٩٦٦٥٤٤٨٨٢٠٨٢

البريد الإلكتروني: fza_4@hotmail.com

إصدارات: صدر للباحث ديوان شعري بعنوان "أنا الذي رأيت كل شيء" عام ٢٠١٥م.

الإهداء

إلى والديَّ الكريمين

راجيًا من الله برّهما.

إلى إخوتي وأخواتي

حافظًا لهم الود والعهد.

إلى زوجتي العزيزة

شاكرًا لها الصبر والتشجيع.

إلى ابنتي بلقيس

الحب كله.

فهرس البحث

الموضوع	الصفحة
مقدمة	١
الفصل الأول: التقديم المنهجي والمفهومي	٧-٣٩
المبحث الأول: التداولية منهجًا	٨
المبحث الثاني: الحوار ظاهرةً	٢٧
الفصل الثاني: الحوار التعليمي	٤٠-٥٥
المبحث الأول: مفهوم الحوار التعليمي	٤١
المبحث الثاني: تداولية الحوار التعليمي في المقامة القريضية	٥٣
الفصل الثالث: الحوار الجدلي	٥٦-٧٩
المبحث الأول: مفهوم الحوار الجدلي	٥٧
المبحث الثاني: تداولية الحوار الجدلي في المقامة المارستانية	٦٥
الفصل الرابع: الحوار السجالي	٨٠-١٠٥
المبحث الأول: مفهوم الحوار السجالي	٨١
المبحث الثاني: تداولية الحوار السجالي في المقامة الدينارية	٨٥
خاتمة	١٠١
قائمة المصادر والمراجع	١٠٤

ملخص البحث

لقد مثّل الحوار في مقامات بديع الزمان الهمذاني مكونَا فنيًا ملائمًا لتمرير العديد من الأفكار والتصورات التي حملها المؤلف تجاه مجتمعه والحياة من حوله، وقد جاءت هذه الدراسة لتبحث في هذا المكون الفني وتصنّف أشكاله التي جاء عليها، لكي تكشف بعد ذلك عن الغايات التي أراد بديع الزمان الهمذاني إيصالها إلى متلقي مقاماته.

ومن أجل ذلك فقد استخدمت هذه الدراسة المنهج التداولي بوصفه منهجًا نقديًا يملك الطاقة اللازمة على إعطاء تصوّر حقيقي عن غايات بديع الزمان الهمذاني، حيث وظّفت الدراسة نظريتَين علميتين تعدّان من أشهر نظريات المنهج التداولي، هما نظرية أفعال الكلام لجون أوستين ونظرية الاستلزام الحواري لبول غرايس، حيث ساهمت كلتا النظريتين في تحديد مواقع الحوار داخل مقامات الهمذاني بالإضافة إلى استجلاء الوظائف التداولية الكبرى التي كانت من ضمن الغايات التي سعت إليها الدراسة.

ويُتوقع لهذه الدراسة أن تظفر بنتائج عدة، من أهمها:

- الكشف عن التوجهات الفكرية التي عُني بها بديع الزمان الهمذاني وحاول إيصالها للمتلقي عن طريق الحوار.
- الوصول إلى تصوّر حقيقي للحياة الاعتيادية التي كان يحياها الإنسان العربي في القرن الرابع الهجري.
- كيف أسهمت الأشكال الحوارية المتعددة في نقل أفكار بديع الزمان الهمذاني وتصوراته.
- مدى نجاعة المناهج النقدية الحديثة في استنطاق المدونات العربية التراثية وكشف خباياه الفكرية المتعددة.

Abstract

The dialogue in **Badi' al-Zamān al-Hamadani maqam** represent a proper artistic Component to convey many of the insights and perceptions Carried by the author to the community and to the life around him. The study is initiated to search this Artistic component and classify the forms it took within the maqam, to detect subsequently the aspects that AL-Hamadani wanted to carry to the recipient.

To achieve this purpose, this study followed the **pragmatics** -which is a critical approach- due to its ability to give a real idea about Badi 'al-Zaman al-Hamadani's objectives. Where the study utilize two will-known scientific theories of **pragmatics, which** are **Locutionary theory** by **John Austin and conversational implicature theory by Paul Grice.** The two theories contributed to determine the sites of dialogue within **al-Hamadani** maqam. In addition to clarifying the major **functionalism parasession** which was among the objectives sought by the study.

This study is expected to gain several outcomes. Some of the substantial outcomes are:

· Detect the intellectual trends that AL-Hamadani cared about and tried and delivery to the recipient through dialogue.

· Reach a realistic perception of normal life, which was experienced by the Arab in the fourth century AH.

· How the various forms of dialogues cooperated in transforming the actual ideas of AL-Hamadani and his perceptions.

· Estimating the efficacy of modern critical approaches in interrogating Arab heritage manuscript, and revealing multiple intellectual mysteries.

الفصل الأول:

التقديم المنهجي والمفهومي

المبحث الأول: التداولية منهجا.

المبحث الثاني: الحوار ظاهرة.

المبحث الأول: التداولية منهجا:

أولا: التداولية عند الغرب حديثا:

ترجع لفظة "التداولية" في نشوئها إلى التقسيم الثلاثي الذي وضعه الفيلسوف "شارل موريس" وذلك من خلال المقال الذي كتبه عام ١٩٣٨م حيث "بيّن مختلف الاختصاصات التي تعالج اللغة وهي: علم التراكيب (وبالإجمال النحو الذي يقتصر على دراسة العلاقات بين العلامات)، وعلم الدلالة (الذي يدور على الدلالة التي تتحدد بعلاقة تعيين المعنى الحقيقي القائمة بين العلامات وما تدل عليه) وأخيرًا التداولية التي تُعنى – في رأي موريس – بالعلاقات بين العلامات ومستخدميها"[١]

وباعتبار التداولية تصورًا للغة فإن معناها هو "وصف مجموعة متنوعة من الأعمال أكثر منها فنًّا (أعمال حول أنواع التعجّب، والروابط، والتعريف الاسمي، والأمثال، وطقوس الآداب، والتفاعلات التحادثية، الخ.) وهي أعمال ترفض دراسة النسق اللغوي دراسة محايثة. فالتداولية تسم إذن تصورًا معينا للغة وللتواصل بوجه أعم".[٢]

وتعد جهود "ليفينسون" من أبرز الجهود في تعريف التداولية حيث إنه "يرى أن علم التراكيب يهتم بدراسة الخصائص التأليفية بين الكلمات، وعلم الدلالة يهتم بالبحث عن المعنى، أما التداولية فتُعنى بدراسة اللغة في الاستعمال ويأتي هذا التعريف تمييزًا لها عن الدراسات البنيوية التي اهتمت بدراسة اللغة باعتبارها نظامًا

---

[١] التداولية اليوم (علم جديد في التواصل)، آن روبول وجاك موشلار، تر: سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ١٩٩٨م، ص٢٩

[٢] معجم تحليل الخطاب، باتريك شارودو ودومينيك منغنو، تر: عبد القادر المهيري وحمادي صمود، المركز الوطني للترجمة، تونس، ٢٠٠٨م، ص٤٤٣

مغلقًا معزولا عن المؤثرات الخارجية"[٣]، وفي ذات الموضوع نجد أن ليفينسون يعطي مجموعة من التعاريف حاول من خلالها تحديد مفهوم التداولية، حيث يقول:"

- التداولية هي دراسة للعلاقات بين اللغة والسياق.
- التداولية هي دراسة لظواهر بنية الخطاب اللغوي من تضمينات واقتضاءات أو ما يسمى بأفعال الكلام.
- التداولية هي دراسة كل مظاهر المعنى من غير فصلها عن نظرية الدلالة، فالتداولية بهذا المعنى تدرس اللغة من خلال استعمالها ضمن سياق معين دون إهمالها للمعنى وعلاقته بظروف الكلام، فهي تهتم بالمتخاطبين ومقاصدهم والسياق الذي ترد فيه مع مراعاة المقام، وكل هذه العناصر مترابطة ومتداخلة فيما بينها"[٤].

ووفق التقسيم الذي اعتمده موريس وعرفه ليفينسون وغيره تكوّنت التداولية بوصفها قسمًا مستقلًا بذاته، فتصدى لها علماء كُثُر بالشرح والتبيان انطلقوا في شرحهم وتبيانهم من عدة نظريات فلسفية ومعرفية، فكان أن استوجبت تلك الشروح إنشاء عدة تعريفات للتداولية، منها:[٥]

- التداولية هي دراسةُ المعنى التواصلي، أو معنى المرسل، في كيفية قدرته على إفهام المرسل إليه بدرجة تتجاوز معنى ما قال.

  فهذا التعريف ينطلق أساسا من المعنى في سياق التواصل أو معنى المتكلم.
- التداولية هي كيفية إدراك المعايير والمبادئ التي توجه المرسل عند إنتاج الخطاب، بما في ذلك استعمال مختلف الجوانب اللغوية، في ضوء عناصر السياق، بما يكفل له ضمان التوفيق من لدن المرسل إليه عند تأويل قصده، وتحقيق هدفه.

---

[٣] الأفعال الكلامية في سورة الكهف (رسالة ماجستير)، آمنة لعور، جامعة منتوري، الجزائر، ٢٠١١م، ص٢٦

[٤] المرجع نفسه، ص٢٧

[٥] استراتيجيات الخطاب (مقاربة لغوية تداولية)، عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠٠٤م، ص٢١،٢٢

وهذا التعريف كما نلاحظ يتكئ على المرسل بوصفه مسيطرًا على العملية التواصلية وموجهًا لها وفق أهدافه وغاياته.

ولعل التعريف الذي اطمأنت إليه الدراسة بسبب شموليّته لكافة أركان العملية التواصلية هو أن: التداولية بالنسبة إليه تختص "بدراسة المعنى كما يوصله المتكلم (أو الكاتب) ويفسره المستمع (أو القارئ)؛ لذا فإنها مرتبطة بتحليل ما يعنيه الناس بألفاظهم أكثر من ارتباطها بما يمكن أن تعنيه كلمات أو عبارات هذه الألفاظ منفصلة"[٦]

والسبب الذي أدى إلى تنوّع تعريفات التداولية عائد إلى الغاية التي يرومها المشتغل على علمية التحليل، فقد يقتصر على دراسة المعنى التواصلي، أو أنه "يعرّفها انطلاقًا من اهتمامه بتحديد مراجع الألفاظ وأثرها في الخطاب، ومنها الإشاريات، بما في ذلك طرفا الخطاب، وبيان دورهما في تكوين الخطاب ومعناه وقوته الإنجازية"[٧]، وعليه فإن مصادر الدرس التداولي المعاصر متعددة ومتنوعة "فالأفعال الكلامية، مثلا، مفهوم تداولي منبثق من مناخ فلسفي عام هو تيار (الفلسفة التحليلية) بما احتوته من مناهج وتيارات وقضايا، وكذلك مفهوم نظرية المحادثة الذي انبثق من فلسفة بول غرايس، أما نظرية الملاءمة فقد ولدت من رحم علم النفس المعرفي وهكذا ..."[٨]

ومن خلال ما سبق سيتم التطرق إلى نظريتي الأفعال الكلامية والاستلزام الحواري لما لهما من أهمية في الدرس التداولي بشكل عام وكذلك في إرفاد هذا البحث بشكل خاص بالقدرة التحليلية التي يحتاجها.

أ. نظرية الأفعال الكلامية:

هذه النظرية أسسها أوستين وقام ببنائها سيرل واستمر بعدهما باحثون كثر في تطوير وتوسيع هذه النظرية

---

[٦] التداولية، جورج يول، تر: قصي العتابي، دار الأمان والدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ٢٠١٠م، ص١٩

[٧] استراتيجيات الخطاب، عبد الهادي بن ظافر الشهري، ص٢٢

[٨] التداولية عند العلماء العرب، مسعود صحراوي، دار الطليعة، بيروت، ٢٠٠٥م، ص١٧

التي تقوم "على فرضية أساسية مفادها أن الجمل في اللغات الطبيعية لا تنقل مضامين مجردة، وإنما تؤدي وظائف تختلف باختلاف السياقات والمقامات، كأن تفيد طلبًا أو سؤالاً أو وعدًا أو غيرها مما يحققه السلوك اللغوي من فعل"[٩] فهي إذن تتأسس على هذا المفهوم السياقي الذي يعتبر "المتكلم يحقق أو ينجز عبر العملية التواصلية فعلاً أو عملًا تمامًا كما هو الحال في الأفعال غير اللغوية ... وبنفس التصور أصبحت اللغة، بعدما كانت مجرد أداة تمثيلية فضاءً تمارس فيه حيوية العناصر الإنجازية. ومنه تم صرف النظر في الدراسات التداولية من الكلمة أو الجملة كوحدات تحليلية إلى وحدة الفعل باعتبارها الوحدة الصغرى التي تقوم عليها العملية التواصلية."[١٠]

وبناء على ما سبق فإن الفعل المنجز يتكون عبر إنشاء لفظ معين من ثلاثة أفعال مترابطة.

- الفعل التعبيري: وهو الفعل الأساسي لأي ملفوظ.
- الفعل الوظيفي: وهو الدور الذي يؤديه اللفظ داخل السياق الكلامي، فلو قال أحدهم مخاطبًا شخصًا آخر: أعددت للتو بعض القهوة. فإن الجملة السابقة لها فعل وظيفي يتجاوز الفعل التعبيري، قد يعني هذا الفعل الوظيفي (تقديم عرض/ توضيح/ غرض تواصلي آخر).
- الفعل التأثيري: وهو الفعل الذي يُتوقع أن يفهمه المستمع، فعلى افتراض الجملة السابقة فإن المتكلم سيفترض أن المستمع سيتعرف على التأثير الذي قصده (دعوة لشرب القهوة مثلاً).[١١]

وتصنّف أفعال الكلام من حيث أنواع الوظائف العامة إلى خمسة أنواع، وهي:

- **الإعلانات:** وهي أفعال الكلام التي تغير الحالة عبر التلفظ بها، كأن يقول الزوج لزوجته: أنتِ طالق. فهنا يتبدل الحال إلى حال آخر بعد إعلان الطلاق.

---

[٩] التداوليات (علم استعمال اللغة)، حافظ إسماعيلي علوي وآخرون، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط٢، ٢٠١٤م، ص٢٢

[١٠] المرجع نفسه، ص٢٢

[١١] التداولية، جورج يول، ص٨٢ و٨٣

- **الممثلات:** وهي أفعال الكلام التي تبين ما يؤمن به المتكلم ويعتقده (الجزم، الاستنتاج، الأوصاف ...)، كأن يقول المتكلم: كان اليوم يومًا جميلًا. فهو هنا يتلفظ بما هو يعتقده وما هو مرتبط به (عالم الاعتقاد).
- **المعبرات:** وهي أفعال الكلام التي تبيّن ما يشعر به المتكلم ويعبّر عن حالته النفسية (التعبير عن الفرح والحزن وما هو محبوب وما هو ممقوت ...)، كأن يقول: أنا متأسف جدًا. فباستخدام المتكلم لهذا التعبير فإنه يجعل الكلمات – الخاصة بتجربته – تلائم حالته النفسية (عالم الأحاسيس).
- **الموجهات:** وهي أفعال الكلام التي يستعملها المتكلمون ليجعلوا شخصًا آخر يقوم بشيء ما. وهي في الغالب تأخذ شكل الأوامر أو التعليمات أو الطلبات أو النواهي وغيرها، ويمكن لها أن تكون إيجابية أو سلبية، كأن يقول أحد ما: لا تلمسْ ذلك. فهو باستعمال هذا التعبير يحاول جعل العالم ملائمًا للكلمات من خلال (المستمع).
- **الملزمات:** وهي أفعال الكلام التي يستعملها المتكلمون ليلزموا أنفسهم بفعل مستقبلي لأنها تعبر عما ينويه المتكلم، مثل الوعود والتهديدات والتعهدات، كأن يقول أحدهم لشخص آخر: سأنجز العمل بشكل صحيح في المرة القادمة. فهو باستعمال هذا التعبير (التعهد) قد ألزم نفسه بفعل معين، وجعل العالم ملائما للكلمات عبر (المتكلم).[١٢]

ب. نظرية الاستلزام الحواري: *

تأسست هذه النظرية التي قامت أساسًا على فكرة المحادثة والتحاور على يد بول غرايس حيث افترض أساسًا أن هناك بُعدين لأي عملية تحاورية هما (البعد التواصلي والبعد التداولي)، فالحوار عنده يقوم على عدة مبادئ تنشأ بين أطراف الحوار هدفها استمرار الحوار في بعده التواصلي، وأي خرق لتلك المبادئ أو

---

[١٢] التداولية، جورج يول، ص٨٩ و٩٠ و٩١

*يُترجم هذا المصطلح إلى عدة ترجمات، أبرزها (الاستلزام التخاطبي، الاستلزام المحادثي، نظرية المحادثة).

لمبدأ واحد منها يستلزم انقطاعًا للبعد التواصلي وابتداء للبعد التداولي.

لماذا أنشئت نظرية الاستلزام الحواري؟

يؤكد بول غرايس "أن التأويل الدلالي للعبارات في اللغات الطبيعية أمر متعذر إذا نُظر فيه إلى المكونات التركيبية، أو الشكل الظاهر فقط.

وعليه يقترح الخطاطة التالية:

- **المقام.**
- **مبدأ التعاون.**
- **معنى العبارة المتلفظ بها من قبل متكلم في علاقته بمستمع محدد.**

ويعتبر بول غرايس أن العنصرين (الأول والثالث) متغيران، في حين أن العنصر الثاني ثابت وعام."[١٣]

ومن خلال هذه النظرية يتبين أن "السؤال الذي طرحته التداولية عبر هذه النظرية والتي جاءت تفسيرًا للتعارض أو التباين الحاصل بين المعنى الوضعي والمعنى السياقي هو أنه (كيف يمكن لعملٍ قوته "أ" أن يدل على عمل قوته "ب"، وكيف يتمكن المتكلم من إبلاغ "ب" عن طريق "أ". وما الذي يعتمده المخاطَب لفهم الغرض المقصود) وبمعنى آخر كيف يتسنى لنا أن نفيد من المعاني أكثر مما نقول ونعبر عنه حرفيًا بالدلالة اللفظية النطقية المباشرة"[١٤]

أما المبادئ التي صاغها بول غرايس فقد اندرجت تحت مبدأ أساس هو مبدأ التعاون "وهو مبدأ حواري عام يشتمل على أربعة مبادئ فرعية، يقتضي أن المتكلمين متعاونون في تسهيل عملية التخاطب"[١٥]، وتتلخص هذه المبادئ فيما يأتي:

---

[١٣] الاستلزام الحواري في التداول اللساني، العياشي أدراوي، دار الأمان، المغرب، ٢٠١١م، ص١٢٧

[١٤] التداولية في البحث اللغوي والنقدي، بشرى البستاني وآخرون، مؤسسة السياب للطباعة والنشر، لندن، ٢٠١٢م، ص٢٥٧

[١٥] المرجع نفسه، ص٢٥٨

مبدأ الكم: وهو أن يجعل المتكلم مساهمته في الحوار معادلة لما هو ضروري دون زيادة أو نقصان.

مبدأ الصدق: وهو يفترض أن المتكلم نزيه فيما ينقل من معلومات وحقائق، وأنه يمتلك الحجج الكافية لإثبات ذلك.

مبدأ المناسبة (أو الصلة): أي أن يكون الملفوظ داخل العملية التحاورية ذا صلة مباشرة بالموضوع.

مبدأ الكيف: ويعني أن يكون التعبير المستخدم في الحوار واضحًا وبلا لبس قدر الإمكان ووفق ترتيب منطقي للأحداث أو للجمل.

ثانيا: التداولية في التراث العربي:

بالعودة إلى معاجم اللغة العربية والبحث عن الاشتقاق الذي أنتجت من خلاله لفظة التداولية نجد أن "الدَّولةُ والدُّولةُ: العُقبة في المال والحرب سواء... يقول الجوهري: الدَّولة والجمع الدُّولُ... يقال: صار الفيء دُولة بينهم يتداولونه مرة لهذا ومرة لهذا، والجمع دُولات ودُوَلٌ... الأزهري: قال الفراء في قوله تعالى: كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم. قرأها الناس برفع الدال إلا السُّلمي فيما أعلم قرأها بنصب الدال، قال: وليس هذا للدولة بموضع، إنما الدولة للجيشين يهزم هذا ثم يُهزم الهازم، فتقول: قد رجعت الدولة على هؤلاء كأنها المرَّة. قال: والدولة، برفع الدال، في المّلك والسنن التي تُغيّر وتُبدل عن الدهر فتلك الدولة والدول، قال الزجاج: الدولة اسم الشيء الذي يُتداول، والدولة الفعل والانتقال من حال إلى حال... قال الحجاج: يوشك أن تُدال الأرض منا كما أُدلنا منها أي يُجعل لها الكّرَّة والدَّولة علينا فتأكل لحومَنا كما أكلنا ثمارها وتشرب دماءنا كما شربنا مياهها... ودالت الأيام أي دارت، والله يداولها بين الناس. وتداولته الأيدي: أخذته هذه مرة وهذه مرة."[١٦]، ووفق هذه التفسيرات المتنوعة لكلمة (دول) التي جاءت مرة بمعنى التعاقب على الشيء ومرة بمعنى انتقاله من شخص إلى آخر أو من مكان إلى مكان ومرة بمعنى الدوران، فإننا نجد أنها تتفق في معنى جوهري وهو (التحول) وعدم الثبات والاستقرار، وهذا ما يتفق مع مفهوم التداولية الذي يعتبر المعاني الخاصة لكل مفردة غيرَ مستقرة ولا ثابتة، بل تتبدل وتتحول وفق سياق الكلام أو سياق الموقف.

وتعزيزا للمعاني السابقة نستدل بالآيات الكريمات التي وردت فيها معاني التداولية، يقول الله تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ [البقرة:١٨٨]، التداول في هذه الآية مأخوذ من الإدلاء "والإدلاء الإلقاء؛ أي إلقاء الأموال إلى الحكام، وفي الأساس أدليت دلوي في البئر أرسلتها ودلوتها نزعتها، ومن المجاز دلوت حاجتي طلبتها ودلوت به

---

[١٦] لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي بن منظور، بيروت، دار صادر، ط٣، ١٤١٤هـ، مادة (د.و.ل).

إلى فلان تشفعت به إليه وأدلى بحجته أظهرها"[١٧]

وفي قوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾ [الحشر:٧]

وفي هذا يقول ابن كثير:" أي: جعلنا هذه المصارف لمال الفيء لئلا يبقى مأكلة يتغلب عليها الأغنياء ويتصرفون فيها، بحض الشهوات والآراء، ولا يصرفون منه شيئا إلى الفقراء"[١٨]

وفي قوله تعالى ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [آل عمران:١٤٠]، يقول ابن كثير في مضمون هذه الآية "أي: نُديل عليكم الأعداء تارة، وإن كانت العاقبة لكم لما لنا في ذلك من الحكم"[١٩].

أما جذور التداولية في التراث العربي فموجودة منذ نشوء علوم البلاغة، حيث إننا نجد (الأفعال الكلامية) تندرج ضمن مباحث علم المعاني تحديدًا في باب (الخبر والإنشاء)، حيث يؤكد مسعود صحراوي أن "نظرية الخبر والإنشاء عند العرب ـ من الجانب المعرفي العام ـ مكافئة لمفهوم الأفعال الكلامية عند المعاصرين"[٢٠] ثم يقول مشيرًا إلى ظاهرة الخبر والإنشاء بأنها كانت "حقلًا مشتركًا بين تخصصات علمية متعددة ... ومن ثم صار متعينًا على من يدرسها أن يتتبع فروعها وتطبيقاتها في مؤلفات عدد من العلماء

---

[١٧] عناية القاضي وكفاية الراضي، شهاب الدين ابن الخفاجي، تح: عبد الرزاق المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، ج٢، ص٤٧٦

[١٨] تفسير القرآن العظيم، الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تح: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ط٢، ١٩٩٧م، ج٨، ص٦٧

[١٩] تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج٢، ص١٢٧

[٢٠] التداولية عند العلماء العرب، مسعود صحراوي، ص٤٩

الذين أسسوا هذه النظرية في تراثنا أو الذين عمقوا البحث فيها"[٢١]

ويخلص مسعود صحراوي إلى أن (الخبر) يكون "مندرجًا ضمن صنف التقريرات بمصطلحات سيرل. والغرض المتضمن في القول لهذه المجموعة الكلامية هو التقرير، أو هو إدراج مسؤولية المتكلم عن صحة ما يتلفظ به. والشرط الافتراضي الذي تقوم عليه التقريرات هو امتلاك الأسس القانونية أو الأخلاقية التي تؤيد صحة محتواها"[٢٢]

ثم ينتقل إلى (الإنشاء) فيقول بأنه "مندرج ضمن الأصناف الكلامية الأخرى التي بحثها سيرل، وهي كثيرة متشعبة. فمن الإنشاء ما يندرج ضمن الأمريات كالأمر والنهي والاستفهام ... ومنه ما يندرج ضمن الإيقاعيات كألفاظ العقود ... ومنه ما يندرج ضمن البوحيات كالمدح والذم والتمني"[٢٣]

أما نظرية (المعنى) عند العرب القدماء فقد كانت تمثل أهمية كبرى في كتبهم، وهذه النظرية –حسب اللغويين المعاصرين– موجودة على مستوى المفاهيم الوصفية أو المنهجية[٢٤]، فكما يقول العياشي أدراوي: إن "السكاكي يؤمن بوجود معان أو (أغراض فرعية) في مقابل المعنى أو (المعاني الأصلية)، وأن الذي يؤطر الانتقال من المعنى الأصلي إلى المعنى الفرعي هو شروط أداء العبارات الطلبية في مقامات غير مطابقة، ومن ثمة فإن الإخلال بمبدأ شروط الإجراء على الأصل، هو المتحكم الأساس في ظاهرة الاستلزام الحواري.[٢٥]، وحسب العياشي فإن "هذا التوافق الذي يبديه السكاكي بين المعنى الأصلي والمعنى الفرعي، يقابل التقابل البنيوي بين (التراكيب) و (خاصية التركيب)، على اعتبار أن الأول يرتبط بأصل المعنى، فيما

---

[٢١] المرجع نفسه، ص٥٠

[٢٢] المرجع نفسه، ص٨٢

[٢٣] التداولية عند العلماء العرب، مسعود صحراوي، ص٨٢،٨٣

[٢٤] دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي، أحمد المتوكل، دار الثقافة، المغرب، ١٩٨٦م، ص٩٨

[٢٥] الاستلزام الحواري في التداول اللساني، العياشي أدراوي، ص٣٣

تقوم خاصية التركيب بمطابقة الكلام للغرض منه"[٢٦]

أما في العصر الحديث فقد شاع مصطلح التداولية عند اللغويين العرب وتردد في مؤلفاتهم بعد أن تعرض لإشكالية في تسميته في بادئ الأمر، فقد سمي هذا المنهج بالبرغماتية أو البراغماتيك وكذلك سمي بالذرائعية والنفعية وغيرها من التسميات، ويبدو أن هذا التشتت في التسميات كان عائدًا إلى حداثة المنهج عند العرب وعدم وضوحه في أذهانهم. وما يهم في هذا الصدد أن تسمية المنهج بالتداولية هي التسمية المتفق عليها عند أغلب اللغويين العرب.

ويعد طه عبد الرحمن "أحد المفكرين العرب الأوائل، الذين حاولوا التعريف بالفكر التداولي وتطبيقه في بعض مناحي الثقافة العربية الإسلامية، فقد اهتم بالقضايا التداولية من وجهة نظر منطقية وفلسفية مستمدًا وسائله النظرية والمنهجية من علمين، حققا نتائج باهرة هما: اللسانيات والمنطق"[٢٧].

والتداولية عند طه عبدالرحمن مصطلح مقابل "للمصطلح الغربي (براغماتيقا)، لأنه يوفي المطلوب حقه، باعتبار دلالاته على معنى (الاستعمال) و(التفاعل) معا[٢٨]، فهو يجد في المنهج التداولي أداة ناجعة لتقريب فهم التراث وزحزحة التراكمات اللغوية التي غطت المعاني المقصودة، فهو بهذا المنهج يعيد تسليط الضوء على التراث مستعينًا بما أسماه (المجال التداولي) الذي عرّفه بقوله "كما أن المجال في سياق هذه الممارسة، هو وصف لكل ما كان نطاقًا مكانيًا وزمانيًا لحصول التواصل والتفاعل... هو إذن محل التواصل والتفاعل بين صانعي التراث"[٢٩].

---

[٢٦] المرجع نفسه، ص٣٣

[٢٧] اللسانيات العربية الحديثة (دراسة نقدية في المصادر والأسس النظرية والمنهجية)، مصطفى غلفان، منشورات كلية الآداب، الدار البيضاء، ١٩٩٨م، ص٢٤٩

[٢٨] في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط٢، ٢٠٠٠م، ص٢٨

[٢٩] تجديد المنهج في تقويم التراث، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط٣، ٢٠٠٧م، ص٢٤٤

كما وضع شروطًا للتداول اللغوي تتلخص في النقاط التالية:[٣٠]

النطقية: لا يكون المحاور ناطقًا حقيقيًّا إلا إذا تكلم لسانًا طبيعيًا معينًا، وحصّل تحصيلًا كافيًا صيغه الصرفية وقواعده النحوية وأوجه دلالات ألفاظه وأساليبه في التعبير والتبليغ. ومن طبيعة كل منطوق:

- أن لا تنفك الصور اللفظية فيه عن مضامينها.
- أن يكون متعدد الوظائف ومتداخل المستويات.
- أن يكون موجهًا توجيهًا علميًا.
- أن يكون مفتوحًا فتحًا مستمرًا تُبنى موضوعاته بناءً تدريجيًا.

الاجتماعية: إن المحاور يتوجه إلى غيره مُطلِعًا إياه على ما يعتقد وما يعرف، ومطالبًا إياه بمشاركته اعتقاده ومعارفه.

الإقناعية: فعندما يطالب المحاور غيره بمشاركته اعتقاداته، فإن مطالبته لا تكتسي صبغة الإكراه، ولا تَدرُج على منهج القمع، وإنما تتبع تحصيل غرضها سبلًا استدلالية متنوعة تجر الغير جرًا إلى الاقتناع برأي المحاور.

الاعتقادية: كل محاور يعتقد القضايا الضرورية والبدهية والمسلم بها، فضلًا عن كونه يعتقد الرأي الذي يعرضه على الغير، ويعتقد صحة هذا الاعتقاد وما يلزم عنه وصحة الدليل الذي يقيمه على رأيه، كما أنه يعتقد الانتقاد الذي يُوجهه إلى رأي الغير، ولا يقتنع برأي الغير إلا إذا اعتقد أن هذا الرأي مقبول، وأن عناصر الدليل الذي أقامه هذا الغير عليه مقبولة، وأن تدليله مقبول هو بدوره.

هذه الاشتغالات التي يضعها طه عبد الرحمن تجعل المتلقي أمام عمل محكم ومنظم، يضع أهدافًا واضحة أمامه وينطلق في تحقيقها بشكل دقيق.

وهناك باحث آخر هو مسعود صحراوي، الذي أسهم في إثراء المنهج التداولي من خلال إعادة إنتاجه

---

[٣٠] في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، طه عبد الرحمن، ص٣٧و٣٨

وربطه بالتراث العربي، ويعدّ كتابه (التداولية عند علماء العرب) من أبرز الكتب التي أنتجت في هذا المجال وأكثرها شمولية.

ففي هذا الكتاب يجد المتلقي أنّ الباحث يحدد مفهوم التداولية بالنسبة إليه فيقول إن التداولية "ليست علمًا لغويًا محضًا بالمعنى التقليدي، علمًا يكتفي بوصف وتفسير البنى اللغوية ويتوقف عند حدودها وأشكالها الظاهرة، ولكنها علم جديد للتواصل يدرس الظواهر اللغوية في مجال الاستعمال؛ ويدمج، من ثَّمَّ، مشاريع معرفية متعددة في دراسة ظاهرة (التواصل اللغوي وتفسيره)."[٣١]

كما نجد أنه يجمل مهام التداولية في[٣٢]:

أ. دراسة (استعمال اللغة)، التي لا تدرس (البنية اللغوية) ذاتها، ولكن تدرس اللغة عند استعمالها في الطبقات المقامية المختلفة، أي باعتبارها (كلامًا محددًا) صادرًا من (متكلم محدد) وموجهًا إلى (مخاطب محدد) بـ(لفظ محدد) في (مقام تواصلي) محدد؛ لتحقيق (غرض تواصلي محدد).

ب. شرح كيفية جريان العمليات الاستدلالية في معالجة الملفوظات.

ت. بيان أسباب أفضلية التواصل غير المباشر وغير الحرفي على التواصل الحرفي المباشر.

وعلى مستوى الاتجاه الوظيفي يظهرُ أحمد المتوكل بوصفه أحد المساهمين في تفعيل أبحاث النحو الوظيفي وتنشيطها، فكتاباته في هذا الحقل المعرفي تظل مصادر ثرة.[٣٣]

ولديه رؤيته الخاصة في القدرة التواصلية لدى مستعمل اللغة، حيث اعتبر أن القدرة التواصلية تتألف من

---

[٣١] التداولية عند العلماء العرب، مسعود صحراوي، ص١٦

[٣٢] التداولية عند العلماء العرب، مسعود صحراوي، ص٢٦، ص٢٧

[٣٣] قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، حافظ إسماعيل علوي، مجلة عالم الفكر، الكويت، ع٢، مجلد ٣٣، ٢٠٠٤م، ص٢٠٠

خمس ملكات وهي:[٣٤]

الملكة اللغوية: وهي التي تمكن مستعمل اللغة أن ينتج أو يؤول عبارات لغوية ذات بنيات متنوعة في مواقف تواصلية مختلفة.

الملكة المنطقية: وهي قدرة مستعمل اللغة من أن يشتق معارف أخرى بواسطة قواعد استدلال تحكمها مبادئ المنطق الاستنباطي والمنطق الاحتمالي.

الملكة المعرفية: وهي التي تمكن مستعمل اللغة الطبيعية من تكوين رصيد من المعارف المنظمة، كما أن لديه القدرة على تخزين هذه المعارف لاستحضارها وتوظيفها في إنتاج العبارات اللغوية وتأويلها.

الملكة الإدراكية: وهي التي بواسطتها يستطيع مستعمل اللغة الطبيعية إدراك محيطه، وأن يشتق من إدراكه ذلك معارف، وأن يستعمل هذه المعارف في إنتاج العبارات اللغوية وتأويلها.

الملكة الاجتماعية: وهي التي تمكن مستعمل اللغة الطبيعية من موقف تواصلي معين قصد تحقيق أهداف تواصلية معينة.

ونجمل القول في ختام هذا المبحث بأن المفهوم التداولي تطور في الجهود الغربية منذ نشوئه على يد شارل موريس مرورًا بالعديد من الباحثين الذين تولوه بالدرس والإنتاج، حيث أفرزت هذه الجهود نشوء العديد من النظريات التداولية أبرزها نظرية أفعال الكلام التي وضع حجر الأساس لها جون أوستين ثم تطورت ونضجت على يد تلميذه سيرل، وكذلك نظرية الاستلزام الحواري وهي النظرية التي أنشأها بول غرايس ووضع لها العديد من القوانين والمبادئ، وكان مبدأ التعاون هو أبرزها. وهذه النظريات –وغيرها – شكلت أهمية قصوى في عملية التواصل التي هي من أساسات الحياة البشرية.

وكذلك تم الرجوع إلى مفهوم التداولية في كتب التراث العربي، حيث وُجدت ارتباطات وثيقة بين مفهوم التداولية الحديث ومفهومه في التراث العربي، وأبرز هذه الارتباطات هو الارتباط بين نظرية الأفعال

---

[٣٤] آفاق جديدة في نظرية النحو الوظيفي، أحمد المتوكل، دار الهلال العربية، المغرب، ١٩٩٣م، ص٨، ص٩

الكلامية حديثًا وحقل (الخبر والإنشاء) في التراث العربي، وكذلك الارتباط بين نظرية الاستلزام الحواري ونظرية (المعنى) عند البلاغيين العرب.

وأخيرًا تم عرض أبرز الجهود التي قدمها العلماء العرب في العصر الحديث حول مفهوم التداولية وكان أبرزهم طه عبد الرحمن ومسعود الصحراوي وأحمد المتوكل.

المبحث الثاني: الحوار ظاهرة:

أولا: الحوار لغة:

جاء الحوار في المعاجم اللغوية تحت مادة (ح.و.ر) بعدة معان متقاربة، ومن هذه المعاني:

الرجوع عن الشيء وإلى الشيء: "الحَوْرُ: الرجوع عن الشيء وإلى الشيء، حار إلى الشيء وعنه حَوْرا ومحارا وحؤورا: رجع عنه وإليه"[٣٥]، ومن ذلك قوله تعالى في سورة الانشقاق: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾﴾ [الانشقاق:١٤] أي: "كان يعتقد أنه لا يرجع إلى الله ولا يعيده بعد موته"[٣٦].

التغير والتبدل: وفي هذا المعنى يقول ابن منظور: "وكل شيء تغير من حال إلى حال، فقد حارَ يحور حورا. قال لبيد:

وما المرءُ إلا كالشهابِ وضوئهِ يحُورُ رمادًا بعد إذْ هو ساطعُ[٣٧]

مراجعة الكلام: جاء في أساس البلاغة "حاورته: راجعته الكلام، وهو حسن الحوار، وكلمته فما ردّ عليَّ مَحوُرة، وما أحارَ جوابا، أي ما رجع"[٣٨]

وقد وردت مشتقات الحوار في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم، وكانت تصب في معنى التحاور اللغوي، وهي:

---

[٣٥] لسان العرب، ابن منظور، مادة (ح.و.ر)

[٣٦] تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج٨، ص٣٥٨

[٣٧] لسان العرب، ابن منظور، مادة (ح.و.ر)

[٣٨] أساس البلاغة، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري، تح: محمد باسل، دار الكتب العلمية، لبنان، ١٩٩٨م، مادة (ح.و.ر)

الأول: قال تعالى في سورة الكهف: ﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ [الكهف:٣٤]

الثاني: قوله تعالى في ذات السورة: ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ ﴾ [الكهف:٣٧]

الثالث: في بداية سورة المجادلة، قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ﴾ [المجادلة:١]

وفي الحديث النبوي الشريف نجد الكلمة ترد في ذات المعنى، ومن ذلك الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه: "كان النبي ﷺ إذا خرج مسافرا يقول: اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنقلب، والحَور بعد الكَور، وسوء المنظر في الأهل والمال".[٣٩]

وإجمالا لما سبق فإن الحوار والمحاورة في اللغة "يستعملان لمعنى واحد، وهو مراجعة الكلام بين طرفين، والتجاوب والمراد بينهما بواسطة الكلام، وبهذا يستوعب المصطلح كل معاني التخاطب والسؤال والجواب"[٤٠]

ثانيا: الحوار اصطلاحا:

سيتم في هذا القسم من البحث تناول مفهوم الحوار باعتباره جزءًا أساسيًا من أجزاء التواصل الإنساني، وسيكون التناول منقسمًا إلى ثلاثة أقسام: ملامح الحوار عند الإغريق، ملامح الحوار عند العرب وتطور الحوار في الدراسات الحديثة.

---

[٣٩] صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، كتاب الحج، شرح: النووي، تح: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، ط٤، ٢٠٠٦م، ج٢، ص٢٣٧.

[٤٠] الحوار قيمة حضارية، عقيل سعيد ملا زاده، دار النفائس، الأردن، ٢٠١٠م، ص٢٢

أ. ملامح الحوار عند الإغريق:

يعتبر الحوار عند الإغريق أداة متعددة المهام، ومن مهامها أنها أداة معرفية، يستجلبون من خلالها المعارف والعلوم، ومن ذلك نجد أن سقراط قد اتخذ "نهجًا واضحًا في محاوراته إذ إنه يبدأ بتصنع الجهل والتسليم بأقوال محاوريه، ويتظاهر بتلقي العلم منهم، ثم يطرح سؤالًا معرفيًا يتضمن فخًّا، وما أن يتلقى الجواب حتى يفاجئ خصمه بما لا يخطر له على بال حتى أنه لا تنفعه بعد ذلك مراوغة ولا هروب فتزيد حججه ضعفًا ويقع في التناقض، وتتهاوى مكانته أمام الحضور، ليرتفع سقراط إلى دور المعلم العالم فيفتح الأذهان على حقائق جديدة لم تكن في الحسبان"[٤١]

إن سقراط بهذا المنهج التوليدي استغل الحوار في استجلاب العديد من الحجج التي أصبحت أدوات له فيما بعد كي ينقض بها على خصومه وينتصر عليهم.

وكذلك نجد من المهام التي استعمل فيها الحوار هي مهمة الجدل الذي نما وازدهر مع أرسطو، فقد "واصل أرسطو تطبيق المنهج الجدلي حتى مراحل متقدمة من عمره، إلى أن تأكد له أن هذا المنهج لا يؤدي تمامًا إلى اليقين وإنما هو بداية الطريق إليه، أي أنه يمثل بداية المنطق الذي يتميز بقوانينه الخاصة"[٤٢]؛ وذلك لأن الجدل في تصور أرسطو كان يعني الكيفية التي من خلالها يتم التوصل إلى تصور للوجود الواقعي.[٤٣]

كما أننا نجد ملامح للدرس التداولي عند الإغريق، حينما بحث أرسطو في الجزء الأول من كتابه (الريطوريقا rhetorique) باثّ الرسالة (المرسل) ثم درس الخطاب ثم الحجج التي تمكن الخطيب من الاندماج مع الجمهور بحسب تنوع الخطب، أما الجزء الثاني فتناول فيه الجمهور (المتلقي)، حيث تناول

---

[٤١] الحوار في الخطاب (دراسة تداولية سردية في نماذج من الرواية العربية الجديدة)، الطاهر الجزيري، مكتبة آفاق، الكويت، ٢٠١٢م، ص٢٢، ص٢٣

[٤٢] الحوار في الخطاب، الطاهر الجزيري، ص٢٤

[٤٣] المرجع نفسه، ص٢٤

المؤثرات النفسية التي تساعد في تقبل الخطاب، وفي الجزء الثالث تناول الخطبة (الرسالة) فدرس الصيغ التعبيرية وطريقة عرض القضايا.[٤٤]

ب. ملامح الحوار عند العرب:

إن التصور الذي كان في أذهان العرب قديمًا عن الحوار لم يكن كما هو في الزمن الحاضر؛ حيث إنه كان محكومًا بالظروف التاريخية والاجتماعية والسياسية ... إلخ التي كانت تسير بطريقة مغايرة عما هو عليه الحال الآن، وبالتالي نشوء تصورات مختلفة عن تصورات العصر الحديث، كما أن نوعية الفنون التي كان يمارسها الإنسان العربي كانت تحتّم عليه طريقتَها في فهم الحوار، فالمساجلات الشعرية والمناظرات العلمية والدينية والفلسفية وغيرها، كل واحدة منها تنهج نهجًا خاصًا بها، ثم تكون قد ساهمت في وسم ذلك العصر بنهجها وطريقتها، وعليه فقد "اتخذ الحوار شكله الفني في أخبار القدامى وسيطر على موروثهم الحكائي حتى أنه لا يكاد يخلو أي أثر فني من بُعد حواري، ففي معظم الأشكال النثرية مثل النادرة والمقامة والرسائل وغيرها من الأشكال التي تتخذ من الإبلاغ الشفوي للخبر، أو التواصل الكتابي بين الحكّام والرعية، قناةً للتعبير، تظهر ملامح الحوار الثنائي أو الجماعي فضلًا عما يتوفر عليه الخطاب الموجه إلى العامة، وما تتضمنه الكتب، والرسائل الإدارية والحربية، والسياسية، والجغرافية من مضامين مثل الدعوة إلى الإسلام أو عقد حلف أو تعاون، من أبعاد حوارية"[٤٥]

وبالنسبة للأدب فإننا نجد أن الموروث الحكائي العربي القديم غني بالحوار وتداعياته "فمثلما تميزت رسائل إخوان الصفا بطابعها الحجاجي فإن مسامرات التوحيدي ومقابساته مثّلت شكلًا من أشكال الكتابة النثرية

---

[٤٤] مدخل إلى نظرية الحجاج، حسن مرزوقي، مجلة التربية، البحرين، ع١٥، ٢٠٠٥م، ص٤٠

[٤٥] الحوار في الخطاب، الطاهر الجزيري، ص٣٠

المقصودة القائمة على الحوار والجدل"[٤٦]

ومثلما تميز الحوار في رسالة الغفران للمعري والبيان والتبيين للجاحظ بالإثارة العقلية والفطنة والذكاء، فقد كان في مقامات الهمذاني تميزًا بالحلية اللفظية التي تخبئ وراءها الأبعاد النفسية والعقلية للشخصيات.

وفي العصر الحديث نجد نقادًا عربًا قد اهتموا بدراسة الحوار من منطلقات عدة، فمنهم من انطلق فيه من كونه عنصرًا رئيسًا في المسرح، أو عنصرًا مساعدًا في الرواية والقصة، ومنهم من نظر فيه من زاوية فلسفية نقدية منهجية.

فالحوار القصصي عند الصادق قسومة هو "أداة قوامها تمثيل الأقوال ونقلها متصلة بما يسعى المنشئ إلى التعبير عنه، وتكون هذه الأداة وفق طرائق تختلف باختلاف الأنواع القصصية والمذاهب الأدبية المتوخاة في إنشائها، وهو ذو وجوه مختلفة لاتصاله بمستويات متباينة يسهم كل منها في إبراز بعض جوانبه وسماته وأبعاده"[٤٧]

ومن خلال التعريف السابق فإن الصادق قسومة يقترح طريقة (ليست الوحيدة) في دراسة الحوار القصصي، فهو يظن أن دراسة الحوار تختلف "باختلاف عوامل كثيرة في مقدمتها طبيعة الأنواع القصصية ومقتضيات المذاهب الأدبية ونوعية مشارب المنشئين (حتى ضمن النوع القصصي الواحد والاتجاه الأدبي الواحد)، غير أن هذه الأداة القصصية –على تعداد ضروبها شأن سائر الأدوات القصصية– إنما ترد في عمل سردي فني ما بمكونات معينة وسمات محددة ووظائف مضبوطة، ويكون لهذه العناصر جميعًا نظام محدد في تلك القصة، وهذا النظام ينبغي رصده حتى يمكن تحليله"[٤٨]

---

[٤٦] المرجع نفسه، ص٣٠

[٤٧] علم السرد (المحتوى والخطاب والدلالة)، الصادق بن الناعس قسومة، عمادة البحث العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤٣٠هـ، ص٣٦٨

[٤٨] المرجع نفسه، ص٣٧٤

وعليه فإن الصادق قسومة يقترح الخطاطة التالية في دراسة الحوار:[٤٩]

١. **التمهيد:** وذلك من خلال تحديد نصوص الحوار ومواضعها.

٢. **وصف عناصر الحوار:** ويتم وصف عناصر الحوار من خلال تحديد العناصر المكونة له ووصف كل عنصر منها، وتلك العناصر هي:

- **المخاطِب:** وهو الشخصية التي تقوم بدور المرسل أو المتحدث داخل العملية الحوارية.
- **المخاطَب:** وهو المستقبل الذي يُوجه إليه الحوار وتُطلب منه الاستجابة للكلام وإظهار ردة فعل معينه تجاهه.
- **الموضوع:** هو الفكرة التي تتشعب ويدور الحوار حولها، ولا بد لهذا الموضوع من أن يكون واضحًا في أذهان أطراف الحوار وذلك حتى يحقق الحوار الأهداف المرجوة منه.
- **مجال الموضوع:** والمراد به الميدان الذي يدور فيه الحوار، ومجال الموضوع يكون أوسع من الموضوع ذاته، لذلك فهو يسمح للموضوع بالتحرك داخله، وربما تعددت الموضوعات في المجال الواحد.
- **نوع الكلام:** يتحدد نوع الكلام عن طريق تحديد العلاقة التي تربط بين أطراف الحوار، فالحوار الناتج بين الأب وابنه تختلف نوعيته عن نوعية الحوار بين الصديق وصديقه، وهذا عائد إلى طبيعة العلاقة بين تلك الأطراف.
- **وظيفة الخبر في الحوار:** إن الكلام داخل العملية الحوارية لا يُراد به ملء فراغات الوقت فقط، بل إن لهذا الكلام وظيفة ينجزها، فلا بد من تحديد تلك الوظيفة أو الوظائف.
- **موضع القول في الخطاب:** وذلك يعني رصد مواضع الحوار في النص وتتبع حركتها داخله، وهذا التتبع يعطي تصورًا معينًا للقارئ لفهم حركة الحوار وفهم علاقته ببقية أدوات الخطاب، بالإضافة إلى أن حضور الحوار بكثافة معينه وازدياده أو تقلصه يكون له توظيفٌ يختلف باختلاف النظم والغايات.

---

[٤٩] علم السرد، الصادق قسومة، ص٣٧٥-٣٨٢

- **كم الكلام:** إن كم الكلام بين أطراف الحوار له دلالات عدة تعبر عن طبيعة الموضوع وكذلك عن قدرة الشخصية المتكلمة فيه، وهو كذلك يعبر عن تفاوت الشخصيات قولًا وفعلًا وسلطة.
- **السجل المعجمي:** إن السجل المعجمي لأي شخصية من شخصيات الحوار يدل على طبيعته تلك الشخصية (ثقافيًا، عرقيًا، دينيًا، فكريًا ...)، كما أن هذا السجل المعجمي يختلف باختلاف المواقف وطبيعة المتلقين وأحوالهم.
- **الأسلوب:** تتعدد أساليب الحوار وتختلف باختلاف عوامله الفاعلة فيه، لذلك قد يكون الحوار سلسًا مسهبًا متدرجًا تدرجًا منطقيًا، أو قد يكون حوارًا مقتضبًا أو غيرَ مرتب ويوحي بقلق الشخصية المتكلمة واضطرابها.
- **وظيفة الحوار في الخطاب:** المراد بوظيفة الحوار في الخطاب هو تلك العلاقة بين منشئ النص ومتلقيه، فالحديث إذن عن مستوى أعلى من مستوى الحوار بين شخصيات النص، ومدار هذه الوظيفة هو الأهداف التي يرد الكاتب تحقيقها من خلال إنشائه لهذه الحوارات داخل نصه.
- **طبيعة الإحالة والإيحاء:** وهذا يعني الثقافة التي يحيل عليها الحوار من خلال الكلام الذي يؤديه أطرافه، وغالبًا ما تكون دلالة الحوار نابعةً من تباين الإيحاءات والإحالات الواردة في قول كلٍّ منهما.

إن ما ذكره الصادق قسومة أعلاه هو تحليل يتناول عناصر الحوار كاملة تقريبًا، وإذا ما لاحظنا ذلك التحليل فإننا سنجده تحليلا يعتمد العمق في فهم الحوار ويحاول رصد آليات التحكم التي توجه الحوار داخل العمل القصصي.

أما محمد نظيف فإنه ينظر للحوار من زاوية أخرى، حيث إن الحوار بالنسبة إليه مجال "لإبداء الآراء بامتياز، وهو بذلك متنفس يجد فيه المتحاورون إمكانية لقول ما يمكنهم قوله بشأن القضايا الثقافية والسياسية والاجتماعية. وإذا كان الحوار مجالا للرأي، فإن المستهدفين بالرأي ليس المتحاورون فحسب بل

المتتبعون أيضا"[٥٠]

وبناء على ما سبق فإن قضايا الحوار عند محمد نظيف هي ثلاث قضايا:[٥١]

موضوع الحوار: إن اختيار موضوع الحوار ليس خاضعا للصدفة بل إن أهميته هي ما تعطي للحوار متتبعين وكذلك تعطيه نتائج فكرة موالية لذلك الحوار.

الشخصيات: إن اختيار شخصيات الحوار توازي بل تتعدى اختيار موضوع الحوار؛ لأن شخصية الحوار تزيد موضوع الحوار أهمية لدى المتلقي، وشخصية الحوار تقتضي القيمة الاجتماعية والمستوى المعرفي اللذين ينعكسان في مجريات الحوار.

أهداف الحوار: إن للحوار أهدافا فكرية وتوجيهية كثيرة تجمل في هدفين اثنين: إثارة الأفكار الجديدة ثم تنوير الرأي العام وتوجيهه، وهما هدفان يصب أولهما في الثاني تلقائيًا، كما ينشد الحوار التأثير على المنظومة المعرفية التي تكون سابقة عن الحوار بهدف تغييرها بإضافات تحليلية جديدة وبرؤى تقويمية وتأويلية لم تعهد في السابق.

وستحاول الدراسة استثمار هذه التصورات الخاصة بالحوار، سواء التي ذكرها الصادق قسومة أو محمد نظيف، وفق ما يستدعيه الحوار الموجود داخل مقامات بديع الزمان الهمذاني.

ت. تطور الحوار في الدراسات الحديثة:

يعد الحوار "أشد أشكال اللغة صبغة طبيعية، وهو أكثر من ذلك: إذ إن الملفوظات التي يطول بسطها ورغم صدورها عن متكلم وحيد – مثل خطاب خطيب، ودرس أستاذ، وحوار فردي لممثل وخواطر يعبر عنها

---

[٥٠] الحوار وخصائص التفاعل التواصلي (دراسة تطبيقية في اللسانيات التداولية)، محمد نظيف، أفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠١٠م، ص٦٣

[٥١] المرجع نفسه، ص٦٣.

جهرًا رجل وحيد – هي حوارية فردية بشكلها الخارجي فقط، لكنها في الواقع تحاورية أساسا ببنيتها الدلالية وبأسلوبها".[٥٢]

ففي أوائل القرن التاسع عشر الميلادي كان الحوار يمثل نوعًا مستقلًا بذاته، ثم بدأ يتخذ شكلَ أسلوب أو وحدةً نصيةً أو مقطعًا أو مكوّنًا أو متوالية، واتخاذه لواحدة من هذه التقسيمات متأتٍ من الشكل الذي وُظّف به في العمل الأدبي، أو حسب الزاوية أو الاتجاه النقدي الأدبي الذي تناوله، بالإضافة إلى بعده الفلسفي للحوار واتصاله بالجدل والحجاج.[٥٣]

ووفق التقسيمات السابقة نجد أن الحوار قد اتخذ عدة تعريفات متنوعة بتنوع المرجعيات المعرفية لكل ناقد وكذلك متنوعة بتنوع زوايا الرؤية التي نُظر منها إلى الحوار، ومن تلك التعريفات:

- الحوار هو "تلك اللغة المعترضة المتوسطة بين مقاطع السرد والمنبثقة من ذهن الشخصية وانفعالاتها، تُعبّر بواسطتها عن أفكارها ومواقفها بحرّية وإرادة مباشرة أو عن طريق الراوي الناقل لأقوالها انطلاقا من وجهة نظره الذاتية"[٥٤]
- يعد الحوار – كما يعرفه تودوروف – "في معناه الضيق ليس إلا واحدًا من أشكال التفاعل اللفظي وهو بالتأكيد أهمّها جميعًا، غير أنه يمكن فهم الحوار في معناه الواسع بأنه إصغاء، بصوت مرتفع ليس إلى الخطاب فقط، ولكن الإصغاء إلى كل تواصل لفظي أيًّا كان شكله"[٥٥]

أكد باختين "أن الحوار هو تبادل للكلمات وهو أكثر أشكال اللغة طبيعية وأن الأقوال الصادرة عن متحدث فرد مثل الخطبة أو المحاضرة التي يلقيها المدرس أو مونولوجات الممثل، والأفكار الباطنية التي تنطق

---

[٥٢] معجم تحليل الخطاب، شارودو ودومينيك منغنو، ص١٧٠، ص١٧١

[٥٣] الحوار في الخطاب، الطاهر الجزيري، ص٣٥

[٥٤] المرجع نفسه، ص٣٦

[٥٥] المرجع نفسه، ص٣٦

بصوت عال تعد مونولوجية من خلال شكلها الخارجي، إلا أنه بالنظر إلى بنيتها السيميائية والأسلوبية فإنها تُعدّ حوارية بالأساس.[٥٦]

- لا يعني الحوار التبادلَ جهرًا المقتضي حضور شخصين وجهًا لوجه، ولكن أيضًا بمعنى أن كل تبادل كلامي مهما كان وكل تلفظ مهما كانت دلالته واكتماله اكتمالًا ذاتيًا لا يكون إلا جزءًا من تيار تواصل كلامي لا ينقطع (متعلقًا بالحياة اليومية، والأدب، والمعرفة، والسياسة الخ) لكن هذا التواصل الكلامي غير المنقطع لا يمثل بدوره إلا عنصرًا من تطور غير منقطع وفي كل الاتجاهات لفئة معينة.[٥٧]
- كما أننا نجد من يقول بأن "المحاورة أو المداولة على القضية هي النظر فيها وتقديم وجهة النظر حولها من قبل جماعة تتحاور بالفعل في شأنها من أجل تحقيق اتفاق عميق عليها"[٥٨]
- يتضمن الحوار "من الناحية العلمية تفاعلًا تواصليًا يحتضن خصائص تواصلية وخصائص تداولية"[٥٩]

ويمكن بعد ذلك تعريف الحوار من وجهة نظر تداولية على أنه: حديث يجريه مبدع النص حقيقة أو خيالًا في نصه مع نفسه أو طرف فأكثر، أو بينها – من دون المبدع – في مقام تواصلي حول موضوع معين؛ للوصول إلى غاية ينشدها"[٦٠].

ونجملُ القول في ختام هذا المبحث بأن الحوار مكونٌ أساس من مكونات النشاط التواصلي الإنساني عامة والنشاط الأدبي خاصة، كما أن موارده تختلف باختلاف المتحدثين فيه، وباختلاف الموضوعات التي يدور

---

[٥٦] المرجع نفسه، ص٣٧

[٥٧] معجم تحليل الخطاب، شارودو ودومينيك منغنو، ص١٧١

[٥٨] النحو العربي من المصطلح إلى المفاهيم (تقريب توليدي وأسلوبي وتداولي)، محمد سويرتي، أفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠٠٧م، ص١٩١

[٥٩] الحوار وخصائص التفاعل التواصلي، محمد نظيف، ص٧

[٦٠] الحوار في شعر محمد حسن فقي (دراسة تداولية)، محمد عبد الله المشهوري، إدارة النشر العلمي والمطابع بجامعة الملك سعود، الرياض، ١٤٣٤هـ، ص١٠

حولها، وكذلك باختلاف الغايات والأهداف التي يرومها المتحدثون منه. ويمكننا القول كذلك بأن البحث في الحوار قد زاد نشاطه في السنوات القليلة الماضية فقط، وأنه استمر قرونا طويلة دون أن يُلتفت إليه، بيد أن الدراسات الحديثة حاليًا وما هو متوقع في السنوات القادمة ستساهم في فهم أعمق للحوار ولاستعمالاته الصحيحة.

الفصل الثاني:

الحوار التعليمي

المبحث الأول: مفهوم الحوار التعليمي

المبحث الثاني: تداولية الحوار التعليمي في المقامة القريضية

المبحث الأول: مفهوم الحوار التعليمي:

في الفصل الأول من هذا البحث تم التطرق إلى مفهوم الحوار بشكل عام، سواء في العصر القديم أو الحديث، وفي هذا الفصل سيتم تناول ما يتعلق بمفهوم الحوار التعليمي بوصفه وظيفة من وظائف الحوار وركيزة يتم الانطلاق منها في عملية التحليل التي سيقوم عليها هذا الفصل، والحوار التعليمي كما يترجمه عامر الحلواني في كتابه (أسلوبية الوصف والحوار) هو "خطاب مرَن، ينهض على علاقة عموديّة بين مَن يمتلك المعرفة والأجوبة، ومَن يفتقر إليهما، فيكتفي بالسؤال"[٦١]

فالخطاب مرن وعمودي لأن المتحدث طرف واحد فقط، أما الطرف الثاني فهو متلقٍ يشارك أحيانا في طرح الأسئلة، ولأن الطرف الثاني هو الراغب في طلب العلم والمعرفة فإن الطرف الأول لن يجد حرجًا في الإسهاب والإطالة في حديثه؛ لأنه متيقن أن الطرف الآخر لديه الاستعداد الكامل للاستماع إليه بتركيز.

وفي الحوار التعليمي تنقُلُ الشخصية المحاورةُ "معارفها إلى شخصية أخرى تجهلها أو تتظاهر بجهلها لها، ويمكن أن تنخفض درجة التفاعل بين المتحاورين أو ترتفع وذلك حسب نوع المعلومة المقدّمة أو الموضوع المطروح، مع الأخذ بعين الاعتبار مستوى تقبل المشاركين واستعداداتهم الذهنية والنفسية"[٦٢]

ويعتبر الحوار التعليمي من الحوارات الشائعة في الحياة الاجتماعية لما يتميز به من خصائص عدة هي:

- لا يكون المتحاوران في وضعية خطابية متساوية. فهما لا يضطلعان بنفس الدور التفاعلي حتى لو تساوى وضعهما الاجتماعي.
- يمتلك المحاور الأول المعارف والمعلومات التي يرغب الطرف الثاني في الحصول عليها.
- يكون التبادل السائد من نوع (طلب/ جواب).

---

[٦١] أسلوبية الوصف والحوار، عامر الحلواني، دار التسفير الفني، تونس، ٢٠٠٣م، ص٨٧

[٦٢] الحوار في الخطاب، الطاهر الجزيري، ص٧١

- يُكلف أحد المتحاورين بطرح الأسئلة والآخر بالإجابة.
- يصل المتحاوران إلى وضعية موحدة، خاصّة عندما يوافق المحاور الذي يملك المعرفة على الحوار.[٦٣]

وتعتبر المحاضرات والخطب شكلاً من أشكال الحوار التعليمي، هذا على المستوى المجتمع الكبير، أما على مستوى المجتمع الصغير فنجد حديث الأب مع ابنه والمدير مع موظفه غالبًا ما تتسم بطابع الحوار التعليمي.

[٦٣] الحوار في الخطاب، الطاهر الجزيري، ص٧١

المبحث الثاني: تداولية الحوار التعليمي في المقامة القريضية:

تنهج مقامات الهمذاني في كثير من الأحيان سبيل الحوار التعليمي[٦٤] في دفع عملية القص، فعلى الرغم من تعدد أغراض مقامات الهمذاني إلا أن هناك غرضًا وناحيةً "ركّز عليها الدارسون في مقامات الهمذاني وهي الناحية العلمية أو التعليمية فقد كان بديع الزمان حريصًا على أن تكون مقاماته إلى جانب فوائدها الاجتماعية ذات فائدة تعليمية لقارئيها"[٦٥]. وبعد أن تم تحديد الشكل الذي تم استيعابه للحوار التعليمي برزتْ (المقامة القريضية) لكي تكون مجالًا للدراسة في هذا المبحث.

نص المقامة:

المَقَامَةُ القَرِيضِّة[٦٦]

حَدّثَنَا عِيسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ: طَرَحَتْنِي النّوَى مَطَارِحَهَا حَتّى إذَا وَطِئْتُ جُرْجَان الأَقْصى. فاسْتَظْهَرْتُ عَلَى الأَيامِ بِضِياعٍ أَجَلْتُ فِيها يَدَ الْعِمَارةِ، وَأَمْوَالٍ وَقَفْتُهَا عَلى التّجَارَةِ، وَحَانُوتٍ جَعَلْتُهُ مَثَابَةٍ، وَرُفْقَةٍ اتّخَذْتُهَا صَحَابَةً، وَجَعَلْتُ لِلْدّارِ، حَاشِيَتَي النّهَار، وللحَانُوتِ بَيْنَهُمَا، فَجَلَسْنَا يَوْماً نَتَذَاكَرُ القرِيضَ وَأَهْلَهُ، وَتِلْقَاءَنا شَابٌّ قَدْ جَلَسَ غَيْرَ بَعِيدٍ يُنْصِتُ وَكَأَنّهُ يَفْهَمُ، وَيَسْكتُ وَكَأَنّهُ لاَ يَعْلَمُ حَتّى إذَا مَالَ الكَلاَمُ بِنَا مَيْلَهُ، وَجَرّ الْجِدَالُ فِينَا ذَيْلَهُ، قَالَ: قَدْ أَصَبْتُمْ عُذَيَقَهُ[٦٧]، وَوَافَيتُمْ جُذَيْلَهُ[٦٨]، وَلَوْ شِئْتُ لَلَفْظْتُ وَأَفَضْتُ، وَلَوْ قُلْتُ لأَصْدَرْتُ وَأَوْرَدْتُ،

---

[٦٤] على سبيل المثال: المقامة الجاحظية، المقامة العلمية، المقامة الشعرية ...

[٦٥] فن المقامات بين المشرق والمغرب، يوسف نور عوض، دار القلم، لبنان، ١٩٧٩م، ص٩٨

[٦٦] مقامات بديع الزمان الهمذاني، شرح: محمد عبده، الدار المصرية اللبنانية، مصر، ٢٠١٤م: ص٢٢–ص٢٦

[٦٧] العذق: النخلة بما عليها.

[٦٨] الجُذيل: عود ينصب للجربى من الإبل لتحتك به.

وَلَجَلَوْتُ الْحقّ في مَعْرَضِ بَيَانٍ يُسْمِعُ الصُّمَّ، وَيُنزلُ الْعُصْمَ[٦٩]، فَقُلْتُ: يَا فَاضِلُ أَدْنُ فَقَدْ مَنَّيْتَ، وَهَاتِ فَقَدْ أَثْنَيتَ، فَدَنَا وَقَالَ: سَلُونِي أُجِبْكُمْ، وَاسْمَعُوا أُعْجِبْكُمْ. فَقُلْنَا: مَا تَقُولُ فِي امرئ الْقَيسِ؟ قَالَ: هُوَ أَوَّلُ مَنْ وَقَفَ بِالدِّيارِ وَعَرَصَاتِهَا، وَاغْتَدَى وَالطَّيرُ فِي وَكَنَاتِهَا، وَوَصَفَ الْخيلَ بِصِفَاتِهَا، وَلَمْ يَقُلِ الشِّعْرَ كَاسِياً. وَلَمْ يُجِدِ القَوْلَ رَاغِباً، فَفَضَلَ مَنْ تَفَتَّقَ للْحِيلةِ لِسَانُهُ، وَانْتَجَعَ لِلرَّغْبَة بَنَانُهُ، قُلْنَا: فَما تَقُولُ فِي الْنَّابِغَةِ؟ قالَ: يَثلِبُ[٧٠] إِذَا حَنِقَ، وَيَمْدَحُ إِذَا رَغِبَ، وَيَعْتَذِرُ إِذَا رَهِبَ، فَلاَ يَرْمي إِلاَّ صَائِباً، قُلْنَا: فَمَا تَقُولُ فِي زُهَيرٍ؟ قَالَ يُذِيبُ الشِّعرَ، والشعْرُ يُذيبُهُ، وَيَدعُو القَولَ وَالسِّحْرَ يُجِيبُهُ، قُلْنَا: فَمَا تَقُولُ فِي طَرَفَةَ: قَالَ: هُوَ ماَءُ الأَشْعَارِ وَطِينَتُها، وَكَنْزُ الْقَوَافِي وَمَدِينَتُهَا، مَاتَ وَلَمْ تَظْهَرْ أَسْرَارُ دَفَائِنِهِ وَلَمْ تُفْتَحْ أَغْلاَقُ خَزَائِنِهِ، قُلْنَا: فَمَا تَقُولُ فِي جَرِيرٍ وَالْفَرَزْدَقِ؟ أَيُّهُمَا أَسْبَقُ؟ فَقَالَ: جَرِيرٌ أَرَقُّ شِعْراً، وَأَغْزَرُ غَزْراً وَالْفَرَزْدَقُ أَمْتَنُ صَخْراً، وَأَكْثَرُ فَخْراً وَجَرِيرٌ أَوْجَعُ هَجْواً، وَأَشْرَفُ يَوْماً وَالْفَرَزْدَقُ أَكَثَرُ رَوْماً، وَأَكْرَمُ قَوْماً، وَجَرِيرٌ إِذَا نَسَبَ أَشْجَى، وَإِذَا ثَلَبَ أَرْدَى، وَإِذَا مَدَحَ أَسْنَى، وَالْفَرزدقُ إِذَا افْتَخَرَ أَجْزَى، وَإِذَا احْتَقَرَ أَزرَى، وَإِذا وصَفَ أَوفَى، قُلنَا: فَمَا تَقُولُ فِي المُحْدَثِينَ منْ الشُّعَراءِ والمُتَقَدِّمينَ مِنهُمْ؟ قالَ: المُتَقَدِّمونَ أَشْرفُ لَفْظاً، وَأَكثرُ منْ المَعَاني حَظاً، وَالمُتَأَخِّرونَ أَلْطَفُ صُنْعاً، وَأَرَقُّ نَسْجاً، قُلْنا: فَلَو أَرَيْتَ مِنْ أَشْعارِكَ، وَرَوَيْتَ لَنا مِنْ أَخْبارِكَ، قالَ: خُذْهَما في مَعْرِضٍ واحِدٍ، وَقالَ:

أما تروني أتغشى طمرا ممتطيًا في الضر أمرًا مرا
مضطبنًا على الليالي عمرا ملاقيًا منه صروفًا حمرا
أقصى أمانيَّ طلوع الشعرى فقد عنينا بالأماني دهرا
وكان هذا الحر أعلى قدرا وماء هذا الوجه أغلى سعرا
ضربت للسرا قبابًا خضرا في دار دارا وإيوان كسرى
فانقلب الدهر لبطن ظهرا وعاد عرف العيش عندي نكرا

---

[٦٩] العصم: جمع الأعصم وهو من الوعول والظباء.

[٧٠] يثلب: يسب ويشتم.

لم يبق من وفريَ إلا ذكرى ثم إلى اليوم هلم جرا

لولا عجوز لي بسرَّ من را وأفرخ دون جبال بصرى

قد جلب الدهر عليهم ضرا قتلت يا سادة نفسي صبرا

قَالَ عِيسَى بْنُ هِشَامٍ، فأَنَلْتُهُ مَا تَاحَ. وَأَعْرَضَ عَنَّا فَرَاحَ. فَجَعَلْتُ أَنْفيهِ وَأُثْبتُهُ، وَأَنْكِرُهُ وَكَأَنِّي أَعْرِفُهُ، ثُمَّ دَلَّتْنِي عَلَيهِ ثَنَاياهُ، فَقُلْتُ: الإِسْكَنْدَرِيُّ وَاللَّهِ، فَقَدْ كَانَ فَارَقَنَا خِشْفاً[٧١]، وَوَافانا جِلْفاً، وَنَهَضْتُ عَلى إِثرِهِ، ثَمَّ قَبَضْتُ عَلَى خَصْرِهِ، وَقُلْتُ: أَلَسْتَ أَبَا الفَتْحِ؟ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ؟ فَأَيُّ عَجُوزٍ لَكَ بِسُرَّ مَنْ رَا؟

فَضَحِكَ إِليَّ وَقَالَ:

وَيْحَكَ هذَا الزَّمَان زُورُ فَـــــلَا يَغُرَّنَّـــــكَ الـغُـــــرُورُ

لاَ تَلْتَـــــزِمْ حَالَـــــةً، وَلكِـــــنْ دُرْ بِاللَّيَـــــالِي كَمَـــــا تَـــــدُورُ

إن هذه المقامة في مقامها التلفظي هي مقامة تعليمية حيث يكون عيسى بن هشام ومن معه جالسين في أحد الحوانيت يتذاكرون الشعر فيما بينهم، وأمامهم شاب يصغي إلى حديثهم، حتى إذا زاد جدالهم في الحديث شاركهم الشابُ فيه وبيّن لهم سعة اطلاعه في الشعر، فراحوا يسألونه عن الشعراء وهو يجيب، حتى إذا أعجبهم حديثه وطلبوا منه أن ينشدهم شعرًا له، راح يستعرض فنونه الشعرية ويشكو لهم سوء حاله، فينال منهم المال. ثم يمضي عنهم، فيلحقه عيسى بن هشام بعد أن اكتشف أمره وعلم أنه أبو الفتح الإسكندري، فيقبضه ويلومه على احتياله عليهم، فيضحك الإسكندري ويرد على ملامة عيسى بن هشام بأبيات يبين فيها سبب احتياله.

---

[٧١] الخشف: ولد الظبي والمراد فارقناه حديثًا جميلاً.

أما من حيث المقام القرائي فإن المقاربة التداولية التي سيتم إجراؤها على هذه المقامة ترمي إلى فهم لغتها باعتبارها بُعدًا تواصليًا وموضوعًا إجرائيًا صالحًا لإنجاز عدد من الأعمال التداولية.

أ. البعد التواصلي:

وأساس هذا البعد هو لغة الموقف، حيث يتضمن المبادئ الخمسة التي تم تناولها في الفصل الأول من هذ البحث، ولأن الحوار الذي ورد في (المقامة القريضية) جاء متسقًا من حيث سلامته وانسيابيته فقد تحقق له ذلك من خلال جملة من المبادئ.

مبدأ التعاون:

كان الحوار بين جماعة عيسى بن هشام وأبي الفتح الإسكندري منسجمًا مع غايات الهدف المتفق عليه فيما بينهم، فأبو الفتح الإسكندري بوصفه مخاطِبًا يُجيبُ عن أسئلة جماعة عيسى بن هشام بوصفهم مخاطَبًا، فهُم يسألونه عن الشعراء وهو يجيب ويوضّح رأيه في أولئك الشعراء، فمثلا: "فقُلنا: ما تقول في امرئ القيس؟ قال: هو أوّلُ مَن وقف بالديار وعرصاتها. واغتدى والطيرُ في وكناتها. ووصف الخيل بصفاتها. ولم يقل الشعر كاسبًا. ولم يُجد القول راغبًا. ففَضَلَ مَن تفتّق للحيلة لسانه. وانتجع للرغبة بنانه. قلنا: فما تقول في النابغة؟ قال: يثلِب إذا حنق. ويمدح إذا رغب. ويعتذر إذا رهب. ولا يرمي إلا صائبًا. قلنا: فما تقول في زهير؟ قال: يُذيب الشعر والشعر يذيبه. ويدعو القول والسحر يجيبه"[٧٢]

فمن خلال الحوار السابق يتبين أن طرفي الحوار تعاونا في إنجاح عملية الحوار، فكلاهما متفاعل مع الآخر يتلفظ بما يُتوقع منه.

مبدأ الكم:

إن كمّ الكلام الذي يتلفظ به طرفا الحوار متناسب مع مقاصدهم من الإخبار، فجماعة عيسى بن هشام تسأل أبا الفتح الإسكندري بأسئلة محددة وهو يجيب عن تلك الأسئلة بإجابات محددة تستوفي الكم المناسب

---

[٧٢] مقامات بديع الزمان الهمذاني، شرح: محمد عبده، ص٢٤،٢٣

لتلك الأسئلة، ولو بدا أن تلك الأجوبةَ طويلة نوعًا ما إلا أن الموقف (الجلوس في حانوت) يستدعي تلك الإطالة ولا تعتبر خرقًا للبعد التواصلي، فعلى سبيل المثال هذا الحوار "قلنا: فما تقول في طرفة؟ قال: هو ماء الأشعار وطينتها وكنز القوافي ومدينتها. مات ولم تظهر أسرار دفائنه. ولم تُفتح أغلاقه خزائنه"[٧٣] فيتبين في هذا المقطع أن كمّ الحديث الذي دار بين طرفي الحوار كان كمّا مناسبًا ومنسجمًا مع عملية الحوار، فلم نجد أيًّا من طرفي الحوار قد أبدى استغرابه أو استنكاره من كلام الطرف الآخر، وهذا يدلل على أن كمّ الحديث في العملية التحاورية كان يؤدي دوره بكل فاعلية داخل المنظومة الكلامية.

مبدأ الصدق:

يتضح في هذه المقامة أن كلا طرفي الحوار يفترض الصدقَ في الطرف الآخر، ويُدرك من خلال الحديث أن الطرف الآخر لديه من الحجج ما يكفي لكي يُثبت كلامه، فنجد أبا الفتح الإسكندري يقول بعدما قام من مكانه واقترب من جماعة عيسى بن هشام وهم يتجادلون حول القريض "قد أصبتم عذيقه، ووافيتم جُذيله، ولو شئت للفظتُ وأفضتُ، ولو قلت لأصدرت وأوردت، ولجلوت الحق في معرض بيان يُسمع الصم، ويُنزل العصم"[٧٤]، ففي هذا المقطع يدّعي الإسكندري بأن لديه المعرفة الغزيرة في القريض ومن العلم ما يستطيع به أن يفض هذا الجدال ويظهر الحق، وقد قوبل هذا الادعاء من جماعة عيسى بن هشام بالتصديق – وإن كان تصديقًا مبدئيًا – حيث يرد عيسى بن هشام فيقول "يا فاضلُ ادنُ فقد منَّيت، وهات فقد أثنيت"[٧٥]. إن افتراض الصدق في الطرف الآخر من الحوار يساعد في جعل الحوار أكثر انسيابية ومرونة، وهذا ما ظهر من خلال الشاهد السابق.

مبدأ الكيف:

---

[٧٣]مقامات بديع الزمان الهمذاني، شرح: محمد عبده، ص٢٤

[٧٤]مقامات بديع الزمان الهمذاني، شرح: محمد عبده، ص٢٣

[٧٥]المرجع نفسه، ص٢٣

كان الحوار في هذه المقامة من مقامات الهمذاني واضحًا لكلا طرفي الحوار من دون أي لبس، ووفق ترتيب منطقي للأحداث، حيث إن الإسكندري كان يجيب عن ذات الجزئية التي سُئل عنها من قِبل جماعة عيسى بن هشام، فحين سألوه عن امرئ القيس أجابهم عن امرئ القيس وحين سألوه عن الشعراء المحدثين أجاب كذلك عن الشعراء المحدثين، وهكذا استمر الحوار في كامل المقامة، وهذا الالتزام بالمبدأ ساهم في استمرار العملية التحاورية.

وبهذا يمكن القول إن المقامة القريضية بما لها من لغة موقف، قد تحقق فيها الحوار التواصلي الناجح وذلك من خلال تحقق أربعة من المبادئ الخمسة التي صاغها بول غرايس.

ولأن لغة الموقف لا تتعدى المستوى الأول من المقصد التواصلي، إلا أنها جزء أساس في تحليل النص حيث سمحت للمتلقي بإعادة بناء السياق من خلال عناصره الثلاثة: موضوع المقامة (القريض)، نوع العلاقة التي تربط بين أطراف الحوار (طالب علم يسأل + صاحب علم يجيب)، الوسيلة التي تم اختيارها لنقل الموضوع (الأسئلة والإجابة).

وإن تفاعل هذه العناصر الثلاثة أنتج مداولة تواصليّة توفر الشروط الأساسية لحدوث عملية التواصل التداولي وإدراك المقصد التواصلي من الملفوظ.

على أن الاقتصار على تحليل لغة الموقف بما هي قوام البعد التواصلي قد لا يكون مثيرًا للمتلقي لأنه يستند إلى الملفوظات المصرحة وهي التي لا يجد المتلقي صعوبة كبيرة في فهمها واستجلاء معناها، لذلك كان للمنهج التداولي بُعد آخر غير البعد التواصلي، وهو البُعد التداولي.

ب. البُعد التداولي:

كان واضحًا من خلال ما سبق أن البعد التواصلي ليس لديه الطاقة الكافية في سبر أغوار المقامة القريضية والكشف عن مضامينها، ذلك أن آليات البعد التواصلي – القائمة على لغة الموقف – ترتكز على الملفوظات الظاهرة الصريحة، ولأن التواصل الإنساني لا يكون ظاهريًا كله، بل إن المسكوت عنه والمضمر يكون في الغالب أكثر من المصرح به، كان لابد من الاستعانة بآليات البعد التداولي – لا سيما سياق الموقف – في الكشف عن مضامين تلك المقامة واستكناه الرسائل التي وضعها بديع الزمان الهمذاني فيها. حيث إن سياق الموقف "يشمل كل ما له صلة بالمحيط الثقافي الذي يصحب عملية إنتاج النص وتلقيه. فهو مفيد في عملية تفسير الملفوظ ودراسة معانيه وتحقيق غايته النفعية"[٧٦]

ولما كانت المقامات عند بديع الزمان الهمذاني تنتمي في أغلبها إلى قصص التكدّي بالحيلة، وكان بطلها هو أبو الفتح الإسكندري "ذلك الرجل الذكي البليغ حاضر البديهة واسع المعرفة غزيرها، يأخذ من كل علم بطرف، وربما بنصيب وافر، حاضر النكتة، عميق السخرية، واسع الحيلة، قادر على التشكل، يجيد التخفي. بضاعته في الأغلب الأعم في لسانه، يجيد النظم والنثر، وهما وسيلته إلى الكدية"[٧٧]، فإن سياق موقفها هو الكدية، وبالتالي فإن أبا الفتح الإسكندري قد اخترق أعراف التواصل في حواره مع جماعة عيسى بن هشام، وهذا الخرق ترتب عليه فهم مخصوص لدى المتحاورين في المقامة، مفاده أن المقصود من الكلام هو الاقتضاء الإيحائي، وهذا يعني إحالة المتلقي – فضلًا عن المعنى المباشر المترتب على الحوار – على معنًى إضافي هو المعنى المضمن في القول. والمبدأ المخترق في هذه المقامة هو **مبدأ الصلة** إذ إن أبا الفتح في حواره مع جماعة عيسى بن هشام لم يكن متواصلًا في ذات الموضوع الذي كان يدور عليه

---

[٧٦] أسلوبية الوصف والحوار، عامر الحلواني، ص١٤٣

[٧٧] أصول المقامات، إبراهيم السعافين، دار المناهل، بيروت، ١٩٨٧م، ص١٥٧

الحديث، بل انتقل إلى موضوع آخر له بُعد تداولي، فحين كان الحوار يدور على القريض ورأي أبي الفتح فيه، سألته جماعة عيسى بن هشام بقولها "قلنا: فلو أريت من أشعارك. ورويت لنا من أخبارك"[٧٨]، وبدل أن يروي لهم أبو الفتح أخباره مع الشعر، أخذ يشكو لهم حاله مع الفقر في قالب شعري يستعرض من خلاله قدراته الفنية في الشعر، متعمدًا في فهم كلامهم على غير وجهه المراد لكي يستغل الموقف في تمرير سؤاله لهم المالَ، حيث يجيب:

"أما تروني أتغشى طمرا ممتطيا في الضر أمرًا مرا
مضطبنًا على الليالي عمرا ملاقيا منه صروفًا حمرا
أقصى أماني طلوع الشعرى فقد عنينا بالأماني دهرا
وكان هذا الحر أعلى قدرا وماء هذا الوجه أغلى سعرا
ضربت للسرا قبابًا خضرا في دار دارا وإيوان كسرى
فانقلب الدهر لبطن ظهرا وعاد عرف العيش عندي نكرا
لم يبق من وفري إلا ذكرى ثم إلى اليوم هلم جرا
لولا عجوز لي بسرَّ من را وأفرخ دون جبال بصرى
قد جلب الدهر عليهم ضرا قتلت يا سادة نفسي صبرا"[٧٩]

ففي الأبيات السابقة يشكو أبو الفتح الإسكندري من الدهر الذي قلب له ظهر المجن، فأفقره بعد غنًى وثروة، وها هو مشتت في جرجان الأقصى وزوجه في سر من رأى وعياله دون جبال بصرى، وهذه الشكوى هي في باطنها سؤال واستجداء، فمن خلال الفعل التأثيري لهذه الأبيات جاءت النتيجة التي خطط لها أبو

---

[٧٨] مقامات بديع الزمان الهمذاني، شرح: محمد عبده، ص٢٥

[٧٩] مقامات بديع الزمان الهمذاني، شرح: محمد عبده، ص٢٥، ص٢٦

الفتح الإسكندري وتوقع حصولها من مستمعيه، حيث يقول عيسى بن هشام عن ردة فعلهم بعد استماعهم لأبيات أبي الفتح: "فأنلته ما تاح، وأعرض عنا فراح"[٨٠]

وبالتالي فإن أسلوب الوصف الذي استخدمه أبو الفتح في أبياته لم يكن أسلوبًا إنشائيًا في حقيقته، بل كان أسلوبًا طلبيًا تستر تحت أسلوب إنشائي غير بريء، مشحونٍ بدلالات وإيحاءات كشفها سياق الموقف.

إن هذه المقاربة التداولية التي أجريت على مقامة تعليمية من مقامات بديع الزمان الهمذاني توقفنا – في مستوى المقتضى الإيحائي – على عدة وظائف في خطاب بديع الزمان الهمذاني عبر مقاماته، هي:

الوظيفة التوثيقية:

حيث يتضح أن بديع الزمان الهمذاني حاول كشف واقع المجتمع العباسي في ذلك الزمن بأنه مجتمع مقهور بسبب استبداد الأغنياء بالمال دون الفقراء بعد نشوء الدويلات في العصر العباسي، ففي "ظلال هذه الحياة اللاهية العابثة من جانب، القاسية الجاسية من جانب آخر، كان طبيعيًا أن تكثر المجاعات، وتنتشر السرقات، وتفشو ألوان من الفسوق والفجور، وتشيع الكدية والاستجداء، وإذ الإنسان العادي –في هذه الدويلات – يعيش حياة قلقة ممزقة، لا يجد ما يطعمه من جوع، ولا يؤمنه من خوف، تتقاذفه أمواج من الآلام دون أن يبصر شاطئ نجاة، وتتعاوره ضروب من التمزق النفسي، وصنوف من الصراع الباطني بين ما يعيشه من حياة مملوءة بالذل والهوان، وما تبصره عيناه وتسمعه أذناه عن تلك الحياة الفاجرة اللاهية التي يحياها الأمراء والوزراء ومن سعى سعيهم."[٨١]

الوظيفية الجمالية:

ومدار هذه الوظيفة على جمالية البؤس وذلك من خلال ما قام به بديع الزمان الهمذاني من عرض للواقع

---

[٨٠] المرجع نفسه، ص٢٦

[٨١] النموذج الإنساني في أدب المقامة، علي عبد المنعم عبد الحميد، الشركة المصرية العالمية للنشر، مصر، ١٩٩٤م، ص٣٢

البائس للمجتمع العباسي بهذا القالب الأدبي الرفيع، الذي تميزه لغة فنية عالية، حيث إن "البديع في مقاماته يحرص أشد الحرص على أن تكون اللغة معبرة عن الشخصيات وهي تحتفظ بشخصيتها المستقلة في آن معًا، هي ببساطة لغة البديع المتميزة. وهي كذلك تتنوع بتنوع المواقف الدرامية والنفسية والمادية التي تصورها، إذ إنها تنحو نحو لغة الأعراب حين تميل الشخصية إلى الشكوى فتعمد إلى عبارات قصيرة ذات إيقاعات سريعة معجمها اللفظي مستق من شظف العيش وقسوة الحياة، بيد أنها تظل جزءًا أصيلًا لا يتجزأ من أسلوب البديع بفكاهته وتضميناته الثقافية وبثقافته اللغوية والأدبية الواسعة"[٨٢]، وهذا الإخراج الجمالي قد ارتقى بالتجربة الحياتية البائسة إلى مستوى الإيحاء بدلالات اقتضائية خفية تحبب هذه الحياة البائسة للمتلقي وتعدّل موقفه منها.

[٨٢]أصول المقامات، إبراهيم السعافين، ص١٢٨

الفصل الثالث:

الحوار الجدلي

المبحث الأول: مفهوم الحوار الجدلي

المبحث الثاني: تداولية الحوار الجدلي في المقامة المارستانية

المبحث الأول: مفهوم الحوار الجدلي:

يمثل الجدل شكلًا من أشكال الحوار، وبما أنه تميز عن غيره من أنواع الحوار باسمه الخاص، فكذلك تميز بمعانيه الخاصة، وبالعودة إلى أصل لفظة الجدل يتبين أنها جاءت في عدة معانٍ، منها:

الصراع والغلبة: "الجدلُ: الصَّرعُ. وجَدَلَه جَدْلاً. وتَجَدَّل: صَرَعهُ على الجَدَالةِ. ويقال: طعنه فجَدله، أي: رماه بالأرض فانجدَل"[٨٣]

الخصومة: فـ "الجدلُ: اللدد في الخصومة والقدرة عليها ... وجادَله، أي: خاصمه مجادَلةً وجدالاً"[٨٤]

الإتقان والحُسن: "الجدْلُ: شدة الفَتْل. وجدلتُ الحبلَ أجدِلُهُ جَدْلاً إذا شددتُ فتله وفتلته فتلًا محكمًا، ومنه قيل لزمام الناقة الجدَيل ... ويقال: رجل مجدول الخلق: محكم الفتل. وجارية مجدولة الخلق: حَسَنتُهُ"[٨٥]

وقد ورد الجدل في القرآن الكريم بنوعين اثنين: محمود ومذموم "فالمذموم ما كان بقصد الغلبة، والجدل بالباطل، أو بغير علم، أو في مكان غير مناسب، أو لقصد الجدل فقط"[٨٦]، ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ٥٨ ﴾ [الزُّخرُف:٥٨] فمن خلال الآية السابقة يتضح أن الجدل لم يكن من أجل الوصول للحق بل كان من أجل الجدل نفسه؛ لذلك كان الحكم عليه بأنهم قوم خصمون.

وأما النوع الثاني من أنواع الجدل فهو الجدل المحمود وهو "ما كان بقصد الوصول إلى الحق، ودفع

---

[٨٣] لسان العرب، ابن منظور، مادة (ج.د.ل).

[٨٤] المرجع نفسه، مادة (ج.د.ل).

[٨٥] المرجع نفسه، مادة (ج.د.ل).

[٨٦] صناعة الحوار (مقاربة تداولية جمالية لحوارات سيدنا إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم)، حمد عبد الله السيف، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت، ٢٠١٥م، ص٢٣٩

الباطل"[٨٧]، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥ ﴾ [النحل:١٢٥].

وأما معنى الجدل اصطلاحًا فقد ورد عند عدد كبير من الأصوليين، حيث عرّفه أبو حامد الغزالي بقوله: "المجادلة عبارة عن قصد إقحام الغير وتعجيزه وتنقيصه، بالقدح في كلامه، ونسبته إلى القصور والجهل فيه"[٨٨]

ومنهم من عرّفه بأنه "حوار كلامي يتفهم فيه كل طرف من الفريقين المتحاورين وجهة نظر الآخر، ويعرض فيه كل طرف منهما أدلته التي رجّحت لديه استمساكه بوجهة نظره، ثم يأخذ بتبصّر الحقيقة من خلال الانتقادات التي يوجهها الطرف الآخر على أدلته، أو من خلال الأدلة التي ينير له بها، بعرض النقاط التي كانت غامضة عليه"[٨٩]

كما عرّفه ابن خلدون بقوله: "أما الجدل وهو معرفة آداب المناظرة التي تجري بين أهل المذاهب الفقهية وغيرهم"[٩٠]

أما الجدل عند علي الجرجاني فهو "عبارة عن مراء يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها ... وهو القياس المؤلف من المشهورات والمسلمات، والغرض منه إلزام الخصم وإفحام من هو قاصر عن إدراك مقدمات البرهان"[٩١]

وقد نُظر إلى الجدل قديمًا من ثلاثة منظورات.

---

[٨٧] المرجع نفسه، ص٢٤٠

٨٨ إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، مؤسسة الحلبي، القاهرة، ١٩٦٧م، ج١، ص١٤٨

٨٩ الحضارة الإسلامية، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، ١٩٩٨م، ص٣٦٣

[٩٠] المقدمة، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ٢٠٠١م، ص٤٩٤

[٩١] التعريفات، علي بن محمد الشريف الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢م، ص٧٩

- المنظور الأول فصل الجدل عن المناظرة باعتبار أن الجدل لا يتأتى إلا بالتسلط وقوة الخطاب، أما المناظرة فتميل إلى التعليم أكثر من الإفحام والإسكات، لذلك قال أصحاب هذا المنظور عن الجدل بأنه "حوار الخلاف والمصادمة. فهو يقوم على نوع من التنافس والتنازع الرامي إلى الغلبة والإفحام. ولهذا اعتبر أصحاب هذا المنحى أن كلمة (جدل) وإن وردت في القرآن والسنة مقرونة بصفات المدح والتنويه والحوار الهادئ، فقد وردت كذلك بمعان تقتضي الإنكار والمنع، حتى اقترنت أحيانا بالبدعة والضلال والرفث والفسوق والكفر. وبالتالي حصروا المناظرة في غرض الوصول عن طريق التعاون إلى الصواب في الموضوع الذي اختلفت فيه أنظار المتحاورين، بينما الغرض من الجدل هو إلزام الخصم وإفحامه مع التغلب عليه في مقام التدليل"[٩٢].
- أما أصحاب المنظور الثاني فقد ألغوا تقريبًا كل الفوارق بين المصطلحات التي تقع بالقرب من حقل الجدل "فعلى الرغم من أن بعضهم يشير إلى وجود اختلافات أولية بين بعض هذه المفاهيم، فقد أوردوا المجادلة إلى جانب مفاهيم أخرى مثل المناظرة والمحاورة والمعارضة والمناقضة والتفكير والتدبر والاعتبار والتأمل والاستدلال. وعليه أفضوا إلى القول بأن هذه الاختلافات لا تؤثر على الموقف العام الذي سلم بوجود تعالقات بين مختلف هذه المفاهيم. كما تكلموا على النظر والمناظرة التي يراد منها المجادلة، ليصبح الجدل بفرعيه المحمود والمذموم جزءًا من المناظرة في الوقت الذي أقر فيه آخرون بأن الجدل المحمود أقرب إلى المناظرة بينما الجدل المذموم أقرب إلى المشاغبة والمماراة، وبالتالي وجبت التفرقة بينهما"[٩٣]
- أما أصحاب المنظور الثالث فإنهم يميلون إلى "القول بأنه ما ذهبت إليه الفرقتان السابقتان لا يعدو أن يكون مجرد اختلافات اصطلاحية بين هذه المفاهيم. وقد استدلوا على موقفهم هذا بالتأكيد على

---

[٩٢] الحوار ومنهجية التفكير النقدي، حسان الباهي، دار أفريقيا الشرق، المغرب، ط٢، ٢٠١٣م، ص١٨

[٩٣] المرجع نفسه، ص١٩

أنه بإمكان محاججة ما أن تبدأ باحترام كل الشروط والضوابط المعمول بها، لكن يمكن في مرحلة ما من مراحل التخاطب أن ننزلق فنستخدم الجدل أو المغالطة والمكابرة وأنواعا من العنف والتسلط اللغوي والمادي، وغيرها من الطرق غير المشروعة. فالدعوى يمكن أن تكون حقا لكن التدليل عليها يمكن أن يكون متعذرا على صاحبها، فيحتاج إلى نصرتها بما ليس بحق، فيفطن لذلك المعترض، فيصعب عليه الأمر، فيلجأ إلى المراوغة والتضليل ... بل يمكن أن يفضي به تعصبه لرأيه إلى أن ينقلب الجدل مكابرة. وقد يخرج الحال به إلى أن يعاند ويحتال فينتهي إلى المراء"[٩٤]

ولمن أراد أن يصنف نوع التواصل اللغوي إن كان جدلًا أم مناظرة ... فيمكنه ذلك من خلال البحث في أسباب الاختلاف بين المتحاورين والذي أدّى بعد ذلك إلى نشوء هذا التواصل اللغوي؛ لأن أسباب الاختلاف هي التي ستقود تلك العملية التواصلية وتوجهها نحو أهداف تلك الأسباب.

وقد ذكر محمد أبو زهرة في كتابه (تاريخ الجدل) عدة أسباب لنشوء الاختلاف، هي:[٩٥]

- **غموض الموضوع في ذاته:**

وهذا يعني أن أطراف الجدل لا ينظرون إلى الموضوع نظرةً شمولية، بل إن كل واحد منهم ينظر إليه من زاويته الخاصة التي لا تفي الموضوع حقه، ولا تعطي تصورًا حقيقيًا عنه، وبالتالي ينشأ هذا الجدل بينهم.

- **غموض موضع النزاع:**

يختلف المتجادلون كثيرا، ويشتد بينهم الخلاف لأن موضع النزاع لم يعلم بالتعيين، أي أن كل طرف في الجدل لا يشترك مع الآخرين في سبب الخلاف، فكل طرف يتحدث في نقطة معينة ومع ذلك فهو يظن أنه يتحدث مع الآخرين في ذات النقطة، وبالتالي ينشأ الخلاف ويزداد الجدل.

---

[٩٤] الحوار ومنهجية التفكير النقدي، حسان الباهي، ص١٩

[٩٥] تاريخ الجدل، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٣٤م، ص٧ – ص١١.

- **اختلاف الرغبات والشهوات:**

ومفاد هذا السبب أن ينظر كل طرف في الجدل إلى رغبته منه ويضع هذه الرغبة نصب عينيه ويريد تحقيقها دون إمعان النظر في موضع الجدل وآراء الأطراف الأخرى، وبالتالي ينشأ هذا الاختلاف بينه وبين الأطراف الأخرى.

- **اختلاف الأمزجة:**

إن اختلاف أمزجة الناس من حيث طريقة التعاطي مع الموضوعات يسهم في نشوء الجدل، فالشخص الذي يكون حاد الطبع لا يتعاطى مع الموضوع بنفس الطريقة التي يتعاطها الشخص الهادئ مثلًا.

- **اختلاف الاتجاه:**

والمراد بالاتجاه هنا هو المنهج العلمي في البحث أو القياس العقلي في التفكير، فطريقة تعاطي المناطقة مع الموضوعات يختلف عن طريقة الجدليين، وكذلك يكون الأمر في التوجهات العقدية أو المدارس الفقهية.

- **تقليد السابقين ومحاكاتهم من غير نظر إلى الدليل ونقص البرهان:**

لأن تقليد السابقين في الغالب يخلو من إعمال العقل ويشجع على التقليد والمحاكاة فقط دون أي محاولة للفهم أو التفسير، وهذا التقليد يؤدي إلى صدامات جدلية مع الآخرين الذين يناقشون ويستفسرون ويستفهمون باحثين عن الأقيسة والبراهين قبل أخذهم لرأي أحد.

- **اختلاف المدارك:**

وهذا السبب مرده إلى اختلاف البشر من حيث القدرات العقلية والإدراكية، فمنهم صاحب العقل الراجح والفكر المتفتق، ومنهم من يقصر نظره عن الأمور فلا يستطيع الإلمام بها، وهذا الاختلاف يؤدي إلى قصور في الإلمام بموضوع الخلاف.

- **الرياسة وحب السلطان:**

ينبري البعض للدفاع عن رأي سلطة معينة رغبة في كسب مودتها ورضاها، فيلتبس الأمر عليه حتى يخيل إليه أن ذلك المنكر الذي يدافع عنه هو الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهذا التصور يجعل على العقل غشاوة لا يرى غير هذا الرأي رأيًا، بل ويظن أنه بهذا الدفاع إنما هو مدافع عن الحق والصواب.

- **التعصب:**

قد تتغلب على الإنسان فكرة ما، فتسيطر على عقله وتفكيره وتمنع أي فكرة أخرى من الوصول إلى عقله، فإذا ما وجد مَن يناقضه فيها يثور ويغضب، وهذا التعصب يعود إلى قوة الإيمان بالفكرة أو إلى أعصاب ضعيفة تمنع من إدراك ما لم يثبت إليها أولًا، وربما يكون الغرور والخيلاء سببًا كذلك.

- **سيطرة الأوهام:**

قد تستولي على كثير من الناس أوهامٌ تجعل الأفكار الغريبة تسيطر عليهم، ثم تجد أنهم يختلفون مع الذين لم يقعوا معهم في ذات الأوهام، وتلك الأوهام ليست مقصورة على عوام الناس، بل إنها قد تقع على بعض خواص العلماء والمفكرين.

إن الحوار الجدلي كثيرًا ما يدور في ذات الموضوع ولا يحدث فيه الاستطراد إلا نادرًا "خاصةً إذا تعلّق الأمر فيه بجدل فلسفي أو إيديولوجي. ويشترط أن يشارك فيه طرفان متناقضا الآراء يتبادلان القول المدعم بالحجج والبراهين وتكون المداخلات والردود بينهما موجزة"[٩٦] ولا بد على المتحاورين أن يلتزموا بمبادئ غرايس الخمسة وخاصة مبدأي الصلة والصدق.

ومن ضمن تعريفات الحوار الجدلي الذي يدخل تحت دائرة المنهج التداولي هو القول إن الحوار الجدلي قائم على "تساوي طرفي المحاورة في المعرفة وتبادل المواقع في طرح السؤال والإجابة عنه، بصرف النظر

---

[٩٦] الحوار في الخطاب، الطاهر الجزيري، ص١٩٦

عن نتيجة الحوار"[٩٧].

[٩٧] أسلوبية الوصف والحوار، عامر الحلواني، ص٨٧

المبحث الثاني: تداولية الحوار الجدلي في المقامة المارستانية:

لم يكن الحوار الجدلي من الأشكال الحوارية التي وردت كثيرًا في مقامات الهمذاني، وربما يرجع هذا الأمر إلى كون الحوار الجدلي دائمًا ما يتسم بالجدية والصرامة، وهذه السمة ليست من السمات العامة لمقامات الهمذاني التي تميل إلى الفكاهة والظرف، ورغم هذا فقد كانت (المقامة المارستانية) من المقامات التي تنحو نحو الحوار الجدلي، فأضحت حقلًا تطبيقيًا يُقاس من خلاله مدى نجاعة الحوار الجدلي تداوليًا.

نص المقامة:

المَقَامَةُ المَارِسْتَانِيّة[٩٨]

حَدَّثَنا عِيسى بْنُ هِشَامٍ قَالَ: دَخَلْتُ مَارِسْتانَ[٩٩] البَصْرَةِ وَمَعِي أَبُو داوُدَ المُتَكَلِّمُ، فَنَظَرْتُ إِلَى مَجْنُونٍ تَأْخُذُنِي عَيْنُهُ وَتَدَعُنِي فَقالَ: إِنْ تَصْدُقِ الطَّيْرُ فَأَنْتُمْ غُرَباءُ، فَقُلْنَا: كَذلِكَ، فَقَالَ: مَنِ القَوْمُ للهِ أَبُوهُمْ؟ فَقُلْتُ: أَنَا عِيسَى ابْنُ هِشامٍ وَهَذَا أَبُو دَاوْدَ المُتَكَلِّمُ فَقالَ: العَسْكَرِيُّ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَ: شَاهَتِ الوُجُوهُ وَأَهْلُهَا إِنَّ الخَيْرَةَ للهِ لا لِعَبْدِهِ، وَالأُمُورَ بِيَدِ اللهِ لا بِيَدِهِ وَأَنْتُمْ يا مَجُوسَ هذِهِ الأُمَّةِ تَعِيشُونَ جَبْراً، وَتَمُوتُونَ صَبْراً وَتُسَاقُونَ إِلى المَقْدُورِ قَهْراً، وَلَوْ كُنْتُمْ في بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذينَ كُتِبَ عَلَيْهِم القَتْلُ إِلى مَضَاجِعِهِمْ، أَفَلا تُنْصِفُونَ، إِنْ كَانَ الأَمْرُ كَمَا تَصِفُونَ؟ وَتَقُولونَ: خالِقُ الظُّلْمِ ظَالِمٌ! أَفَلا تَقُولُونَ: خَالِقُ الهُلْكَ هَالِكٌ؟ أَتَعْلَمُونَ يَقِيناً، أَنَّكُمْ أَخْبَثُ مِنْ إِبْلِيسَ دِيناً؟ قَالَ: رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي، فَأَقَرَّ وَأَنْكَرْتُمْ وَآمَنَ وَكَفَرْتُمْ، وَتَقُولونَ: خُيِّرَ فَاخْتَارَ، وَكَلاَّ فَإِنَّ المُخْتارَ لاَ يُبْعَجُ بَطْنَهُ، وَلاَ يَفْقَأُ عَيْنُهُ وَلا يَرْمِى مِنْ حالِقِ ابْنَهُ، فَهَلِ الإِكْرَاهُ إِلاَّ مَا تَرَاهُ؟ وَالإِكْرَاهُ مَرَّةً بِالمَرَّةِ وَمَرَّةً بِالدِّرَّةِ[١٠٠]. فَلْيُخْزِكُمْ أَنَّ القُرْآنَ بَغِيضُكُمْ، وَأَنَّ الحَديثَ يَغِيظُكُمْ، إِذَا سَمِعْتُمْ: "مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلا هَادِيَ لَهُ" أَلْحَدْتُمْ وَإِذَا سَمِعْتُمْ: "زُوِيَتْ لِيَ الأَرْضُ فَأُرِيتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا" جَحَدْتُمْ وَإِذَا سَمِعْتُمْ: "عُرِضَتْ عَلَيَّ الجَنَّةُ حَتَّى هَمَمْتُ

---

[٩٨] مقامات بديع الزمان الهمذاني، شرح محمد عبده، ص١٤٧–ص١٥٢

[٩٩] المارستان: هو المكان الذي تداوى فيه المجانين.

[١٠٠] المِرّة: العقل. الدِرّة: العصا.

أَنْ أَقْطِفَ ثِمَارَهَا، وَعُرِضَتْ عَلَيَّ النَّارُ حَتَّى اتَّقَيْتُ حَرَّهَا بِيَدِي" أَنْغَضْتُمْ[١٠١] رُؤُوسَكُمْ وَلَوَيْتُمْ أَعْنَاقَكُمْ وَإِنْ قِيلَ: "عَذابُ القَبْرِ" تَطَيَّرْتُم، وَإِنْ قيلَ: "الصِّراطُ" تَغَامَزْتُمْ وَإِنْ ذُكِرَ المِيزَانُ قُلْتُمْ: مِنَ الفِرْغِ كِفَّتَاهُ، وَإِنْ ذُكِرَ الكِتابُ قُلْتُمْ: مِنَ القِدِّ دَفَّتَاهُ، يَا أَعْدَاءَ الكِتابِ وَالحَديثِ، بِماذَا تَطَّيَّرُونَ؟ أَباللهِ وَآياتِهِ وَرَسُولِهِ تَسْتَهْزِئُونَ؟. إِنَّما مَرَقَتْ مَارِقَةٌ فَكَانُوا خَبَثَ الحَديثِ، ثُمَّ مَرَقْتُمْ مِنْها فَأَنْتُمْ خَبَثُ الخَبِيثِ، يَا مَخَانيثَ الخَوارِجِ، تَرَوْنَ رَأْيَهُمْ إِلاَّ القِتَالَ! وَأَنْتَ يا ابْنَ هِشامٍ تُؤْمِنُ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَتَكْفُرُ بِبَعْضٍ؟ سَمِعْتُ أَنَّكَ افْتَرَشْتَ مِنهُمْ شَيْطَانَةً! أَلَمْ يَنْهَكَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ تَتَّخِذَ مِنْهُمْ بِطَانَةً؟ وَيْلَكَ هلّا تَخَيَّرْتَ لِنُطْفَتِكَ، وَنَظَرْتَ لِعَقِبِكَ؟ ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ أَبْدِلِني بِهؤُلاءِ خَيْراً مِنْهُمْ، وَأَشْهِدْنِي مَلائِكَتَكَ.

قَالَ عِيسَى بْنُ هِشَامٍ: فَبَقِيتُ وَبَقِي أَبُو دَاوُدَ لا نُحِيرُ جَوَاباً، وَرَجَعْنَا عَنْهُ بِشَرٍ وإِنِّي لأَعْرِفُ فِي أَبي دَاوُدَ انْكِسَاراً، حَتَّى إِذَا أَرَدْنَا الافْتِرَاقَ قَالَ: يا عِيسَى هَذا وَأَبِيكَ الحَدِيثُ، فَمَا الَّذي أَرَادَ بِالشَّيْطَانَةِ؟ قُلْتُ: لاَ واللهِ مَا أَدْرِي، غَيْرَ أَنِّي هَمَمْتُ أَنْ أَخْطُبَ إِلى أَحَدِهِمْ وَلَمْ أُحَدِّثْ بِما هَمَمْتُ بِهِ أَحَداً، وَاللهِ لا أَفْعَلُ ذَلِكَ أَبَداً، فَقَالَ: مَا هَذا وَاللهِ إِلاَّ شَيْطَانٌ فِي أَشْطَانٍ، فَرَجِعْنَا إِلَيْهِ، وَوَقَفْنَا عَلَيْهِ، فَابْتَدَرَ بِالْمَقَالِ، وَبَدأْنَا بِالسُّؤَالِ، فَقالَ: لَعَلَّكُمَا آثَرْتُمَا، أَنْ تَعْرِفَا مِنْ أَمْرِي ما أَنْكَرْتُمَا، فَقُلْنَا: كُنْتَ مِنْ قَبْلُ مُطَّلِعاً على أُمُورِنَا، وَلَمْ تَعْدُ الآنَ مَا في صُدُورِنَا، فَفَسِّرْ لَنَا أَمْرَكَ، وَاكْشِفْ لَنَا سِرَّكَ، فَقالَ:

أَنَا يَنْبُوعُ العَجَائِبْ	فِي احْتِيَالِي ذُو مَرَاتِبْ
أَنَا فِي الحَقِّ سَنَامٌ	أَنَا في البَاطِلِ غَارِبْ
أَنَا إِسكَنْدَرُ دَارِي	فِي بِلادِ اللهِ سِـــارِبْ
أَغْتَدِي فِي الدَّيْرِ قِسِّيساً	وَفي المَسْجِدِ رَاهِبْ

إن المقام التلفظي لهذه المقامة يدور حول دخول عيسى بن هشام ومعه أبو داود المتكلم إلى مارستان في البصرة، والمارستان هو المكان الذي يُعالج فيه المجانين، وفي أثناء دخولهما رأى عيسى بن هشام أحد

---

[١٠١] أنغضتم: نغض رأسه أي حركه متعجبا.

المجانين وهو ينظر إليهم ويمعن النظر كثيرًا، ثم سألهما عن حالهما فعرفاه بنفسيهما، وعندما علم المجنون أن الشخص المرافق لعيسى بن هشام هو أبو داود المتكلم، وهو من أبرز متكلمي المعتزلة، أخذ المجنون يرد عليه في عقائد المعتزلة ويسوق إليه الحجج والأدلة التي تدعّم رأيه وتضعّف من رأي أبي داود المتكلم، فالمجنون يعرض الرأي المعتزلي ثم يرد عليه، وعيسى بن هشام وأبو داود المتكلم ينصتان إليه ولا يردان عليه، فابتدأ المجنون برأي المعتزلة في أن الإنسان مخيّر في أفعاله غير مُسيّر فيها، وقال لو أن للإنسان الخيرة في أفعاله لما عاش في هذه الدنيا جبرًا ولا مات رغم أنفه ولا سيق إلى المقدور قهرًا، ثم يدلل على ذلك بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ [آل عمران:١٥٤]، ثم ينتقل إلى الرد على إحدى حجج المعتزلة التي يحتجون بها لإثبات أن الإنسان مخيّر في أفعاله وليس مسيّرًا، فالمعتزلة يقولون "لو كان الله خالقًا لأفعال العبد، وفي العبيد من يقع منه الظلم قطعًا، لكان الله خالقًا للظلم، ولو كان خالقًا للظلم لكان ظالمًا، فلو كان خالقًا لأفعال العبد لكان ظالمًا"[١٠٢] وهذا المجنون يرد على هذه الحجة بأنها حجة باطلة فاسدة، ويستدل على بطلانها بالقياس على صفة أخرى وهي صفة الهلاك، وثبت ذلك بأنهم يؤمنون أن الله هو خالق الهلاك مثلما هو خالق الظلم، فلو صحت حجتهم في أن خالق الظلم ظالم لصح بالقياس عليها أن خالق الهلْكِ هالك.

ثم يقوم المجنون بعقد مقارنة في هذا الباب بين المعتزلة والشيطان، ويرجّح كفّة الشيطان الذي أقرّ بأن أفعاله من خلق الله، والمجنون بهذا الترجيح يستدل بقوله تعالى على لسان الشيطان: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى

---

[١٠٢] مقامات بديع الزمان الهمذاني، شرح: محمد عبده، ص١٤٨

لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [الحِجر:٣٩]، بينما المعتزلة ينكرون ذلك، فيكون الشيطان في هذا الباب أقرب إلى الحق منهم.

بعد ذلك ينتقل المجنون إلى حجة أخرى من حجج المعتزلة في تبرير قولهم إن الإنسان مخيّر في أفعاله غير مسيّر، فالمعتزلة يقولون "إن العبد خُيّر في أي الأفعال يفعل فاختار ما مالت إليه نفسه لا مُدخل لغير اختياره في فعله"[١٠٣]، ويرد المجنون على هذه الحجة بحجة عقلية، حيث يرد بإن من الناس من يبعج بطنه بالسكين ومنهم من يفقأ عين نفسه ومنهم من يرمي بابنه من مكان مرتفع فيموت، ولا يمكن بحال من الأحوال أن تكون هذه التصرفات صادرة عن الإنسان باختياره إياها أو ميلان نفسه إليها.

ثم يعيب المجنون على المعتزلة أنهم إن وجدوا الآيات أو الأحاديث التي تخالف آراءهم فإنهم يميلون بها عن ظاهرها ويحاولون تأويلها بما يتلاءم وآراءهم، ففي قوله تعالى﴿ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾ [الكهف:١٧] يقول المعتزلة "لا يصح أن يُنسب الإضلال إلى الله تعالى لأنه شر وإنما الضلال من اختيار البشر إما لتقصير في النظر أو ذهاب وراء الأباطيل لشهوة النفس، ويؤولون هذه الآيات بأن الإسناد إلى الله إسناد إلى السبب الأول لأنه سبحانه خالق الأسباب الأولى باتفاق أهل الكلام بل الملّيين عموما. وقال نصير الدين الطوسي: إن الإضلال يطلق على أحد معان ثلاثة: الأول الإشارة إلى الباطل. والثاني فعل الضلالة. والثالث الإهلاك بسببها، والأخير هو الذي يُسند إلى الله، أي ومن يهلكه الله فلا مُنقذ له"[١٠٤]

ويستمر المجنون في عرض الحجج وإبطالها حتى يصل إلى استهزائهم بمن يقول إن الصراط والميزان

---

[١٠٣] مقامات بديع الزمان الهمذاني، شرح: محمد عبده، ص١٤٩

[١٠٤] مقامات بديع الزمان الهمذاني، شرح: محمد عبده، ص١٤٩

والكتاب هي من الأمور الحسية وليست المعنوية، ويذكرهم بعقوبة الذين يستهزئون بالله وآياته ورسله، ثم يعرّج على ذكر حقيقة المعتزلة، حيث إن المعتزلة المتقدمين قد حادوا عن طريق أهل السنّة بعد أن اعتزل واصل بن عطاء مجلس الحسن البصري، وأما المعتزلة المتأخرين فقد حادوا كذلك عن طريق المعتزلة المتقدمين فكانوا خبَث الخبيث كما يصفهم المجنون.

وبعد ذلك يلتفت المجنون إلى عيسى بن هشام ويلومه على نيته الزواج من ابنة أحد رجال المعتزلة، ويذكره بأن على الإنسان أن يتخير لنطفته المنبتَ الطيّب.

ثم يصد المجنون عن عيسى بن هشام وأبي داود المتكلم، ويبدأ في دعاء الله أن يبدله عن هؤلاء الزائرين بمن هم خير منهم. فيبقى عيسى بن هشام وأبو داود المتكلم لا يحيران جوابًا، ثم ينصرفان وأبو داود المتكلم مكسور القلب مما سمع، فيقول أبو داود لرفيقه عيسى بن هشام إن ما قاله المجنون هو الحق الواضح، ولكن كيف علم بأمر نيتك الزواج؟

فيرجع الرجلان إلى المجنون ويقفان على رأسه، فيخبرهما بأنه يعلم ما الذي أرجعهما وأنهما يريدان معرفة حقيقته، فيقول المجنون في ذلك أبياتًا يعرّف بها نفسه إليهما، فيتّضح أن هذا المجنون ما هو إلا صاحب الحيل والعجائب، الذي إن أراد الحق أظهره وإن أراد الباطل رفعه، إنه أبو الفتح الإسكندري.

كان هذا هو المقام التلفظي للمقامة، حيث تبين أن الغرض الذي تدور عليه المقامة هو الجدل، وأن هذا الجدل كان منتجًا للعديد من الحجج العقلية والتأويلات النصية، فكان المجنون – الذي أصبح أبا الفتح الإسكندري فيما بعد – هو الممسك بزمام الحوار، وهو الذي يستعرض آراء المعتزلة وحججهم، وهو كذلك الذي يرد عليهم تلك الحجج بحجج أخرى، فيما كان الدور الذي لعبه عيسى بن هشام وأبو داود المتكلم في هذا الحوار الجدلي دورًا بسيطًا لا يعدو بضع كلمات وأسئلة متوقعة.

أما المقاربة التداولية التي ستُجرى على هذه المقامة من خلال المقام القرائي لها، فإنها ترمي إلى فهم لغتها بوصفها بُعدًا تواصليًا وموضوعًا إجرائيًا يصلح لإنجاز عدد من الأعمال التداولية.

أ. البُعد التواصلي:

إن البعد التواصلي قائم على لغة الموقف التي تلتزم بشروط سلامة التواصل بين أطراف الحوار (أبو الفتح الإسكندري من جهة، وعيسى بن هشام وأبو داود المتكلم من جهة أخرى)، وقد انبنى الحوار في بعض أشكاله على افتراض مبدئي مفاده أن هذه الأطراف لا تحقق أهدافها من التواصل إلا بمراعاة مبادئ غرايس الخمسة الخاصة بسلامة التعبير، وقد تحققت أغلب تلك المبادئ في هذه المقامة على النحو التالي:

مبدأ التعاون:

فقد كان الحوار الذي دار بين أطراف الحوار في هذه المقامة منسجمًا مع متطلبات الهدف المتفق عليه ضمنيًا، ورغم أن الحوار جاء في الغالب من طرف واحد هو الطرف الأول، إلا أن إنصات الطرف الثاني للطرف الأول كان تعاونًا منه أدى إلى انسجام الحوار واستمراره، ومع ذلك فإن هناك أجزاء من المقامة كان الحوار فيها متبادلًا من كلا الطرفين، ففي بداية المقامة مثلًا كان عيسى بن هشام ومعه أبو داود المتكلم يدخلان إلى المارستان فيدور هذا الحوار بينهم وبين المجنون، يقول عيسى بن هشام: "فنظرت إلى مجنون تأخذني عينه وتدعني. فقال: إن تصدق الطير فأنتم غرباء. فقلنا: كذلك. فقال: مَن القوم لله أبوهم. فقلت: أنا عيسى بن هشام وهذا أبو داود المتكلم. فقال: العسكري؟ قلت: نعم ..."[١٠٥]

يتبين في هذا الجزء أن الحوار الذي دار بين الطرفين المتحاورين كان حوارًا ناجحًا بدليل انسجامه وعدم اضطرابه في أي جزء منه، وقد تحقق هذا الانسجام بفعل التعاون الضمني الذي نشأ بين طرفي الحوار.

مبدأ الصدق:

إن هذا المبدأ يتمثل في أن المتحاورين في هذه المقامة لا يتلفظان – عادةً – إلا بما يؤمنان بصدقه، لذلك يقومان بالتدليل على كلامهما ويذكران في ذلك الحجج والأدلة التي تؤيد كلاهما.

يردُّ أبو الفتح الإسكندري (المجنون) على المعتزلة الذين يقولون بأن أفعال الإنسان – خاصة أفعال الشر –

---

[١٠٥] مقامات بديع الزمان الهمذاني، شرح: محمد عبده، ص١٤٧

هي باختيار الإنسان نفسه اختيارًا مطلقًا وليس لله إرادة في ذلك بقوله: "أتعلمون يقينًا. أنكم أخبثُ من إبليس دينًا. قال بما أغويتني، فأقرّ وأنكرتم"[١٠٦]، ففي هذا المقطع يتبين أن أبا الفتح الإسكندري مؤمن بضلال المعتزلة في رأيهم هذا، ثم ينكر عليهم هذا الرأي، بل ويبرهن على أن المعتزلة أخبث من إبليس دينًا؛ لأن إبليس أقرّ بأن أفعاله آتية بإرادة الله بينما هم ينكرون ذلك.

مبدأ المناسبة (الصلة):

لقد جاء الملفوظ الذي تلفظ به المتحاوران في هذه المقامة متصلًا اتصالًا مباشرًا بالموضوع الذي يدور عليه الحوار، دون العدول عنه إلى ما يُربك عملية التواصل، فعندما كان الحوار يدور حول استهزاء المعتزلة برأي أهل الحديث القائل بأن الميزان والكتاب والصراط هي من الأمور الحسية لا المعنوية، كان كلام أبي الفتح الإسكندري وردّه على هذا الرأي متصلًا بالموضوع اتصالًا مباشرة، حيث يقول: "إن قيل عذاب القبر تطيّرتم. وإن قيل الصراط تغامزتم. وإن ذُكر الميزان قلتم: مَن الفِرغِ كفّتاه. وإن ذُكر الكتاب قلتم: من القِدّ دفّتاه. يا أعداء الكتاب والحديث بما تطيّرون. أبالله وآياته ورسوله تستهزئون ..."[١٠٧]

مبدأ الكيف:

لقد كان الحوار في هذه المقامة حوارًا واضحًا لا غموض فيه، حيث إن القارئ لن يجد صعوبة في إدراك أن الجدل الديني هو موضوع الحوار، فمن بداية المقامة يتضح الجدل الديني بعدما علم أبو الفتح الإسكندري أن الشخص المصاحب لعيسى بن هشام هو أبو داود المتكلم أحد كبار متكلمي المعتزلة، فيقول مخاطبًا أبا داود المتكلم: "إن الخيرة لله لا لعبده. والأمور بيد الله لا بيده. وأنتم يا مجوس هذه الأمة تعيشون جبرًا. وتموتون صبرًا. وتساقون إلى المقدور قهرًا..."[١٠٨]

---

[١٠٦] مقامات بديع الزمان الهمذاني، شرح: محمد عبده، ص١٤٩

[١٠٧] مقامات بديع الزمان الهمذاني، شرح: محمد عبده، ص١٥٠

[١٠٨] المرجع نفسه، ص١٤٨

إن لغة الموقف في المقامة المارستانية كانت ناجحةً في بعدها التواصلي من خلال تحقيقها لأربعة من مبادئ بول غرايس الخمسة، غير أن الاقتصار على تحليل لغة الموقف لن يكون ذا إثارة بالنسبة للمتلقي، ولكنه في ذات الوقت مهمٌ في إبراز عناصر الحوار في هذه المقامة، وهي:

موضوع الحوار (الجدل الديني).

نوع العلاقة التي تربط بين أطراف الحوار (علاقة تناظرية).

الوسيلة التي تم اختيارها لنقل هذا الموضوع (طرح الرأي وتفنيده).

وبالتالي فقد كان من الضروري اللجوء إلى البُعد الآخر للسياق الذي لم يستطع البُعد التواصلي الظفر بتحليله، ونعني بذلك البُعد التداولي.

ب. البُعد التداولي:

إن أهمية البُعد التداولي تكمن في قدرته على استنتاج المعاني المضمرة وراء المعاني المعلنة، كما أنه قادر على استجلاء الإيحاءات التداولية لتلك المعاني، وتلك المعاني وإيحاءاتها هي من مهمّة سياق الموقف، ولا تتأتى إلا بالنظر في مجمل المكونات القولية واللا قولية، والتأليف فيما بينها ومحاولة رصد الوظائف التي تؤديها من خلال سياق الموقف.

ولما كانت المقامة المارستانية تنتمي – بناء على الحوار الذي تقوم عليه – إلى الحوار الجدلي الذي يقوم بدوره على الحجة والدليل والبرهان وغيرها من آليات الجدل والمنطق، فإن أبا الفتح الإسكندري بوصفه مُديرًا للحوار في هذه المقامة قد اخترق أعراف التواصل، وهذا الاختراق ترتّب عليه فهم مخصوص لدى المتلقي، مفاده أن المقصود من الكلام هو الإيحاء أو المقتضى الإيحائي، وهذا يعني إحالة المتلقي على معنى إضافي هو المعنى المضمّن في القول، حيث إن المبدأ الذي تم اختراقه في هذه المقامة هو **مبدأ الكم**، لأن كان إسهام الطرف الأول (أبي الفتح الإسكندري) يتجاوز الكم المطلوب بما يتعدى الكلام الذي يؤدي مقصدًا إخباريًا إلى الكلام الذي يؤدي مقصدًا تداوليًا.

إن أبا الفتح الإسكندري يسترسل في الكلام ولا يعطي لخصومه فرصة في التعليق أو إبداء الرأي أو الاعتراض، فهو يتحدث نيابة عنهم ويطرح أفكارهم ثم يعلّق عليها وينقدها وينقضها، ولعل في ذلك إشارة منه إلى كونه مُدركًا لآراء المعتزلة وخبيرًا بمقاصدهم، بل ولديه القدرة على طرح أفكارهم بشكل أفضل مما يستطيعون على فعله، ورغم ذلك كله فإنه يعترض عليهم تلك الآراء ويبين الغلط فيها من حيث المنطق والدليل.

كما تبرز في هذه المقامة عدة أفعال تداولية يحققها القول الصادر عن أبي الفتح الإسكندري بوصفه مستخدما للغة، هي:

الفعل التعبيري:

وهو الفعل المراد به الإخبار عن آراء المعتزلة، وقد تم إنجاز هذا الفعل بمجرد ذكر تلك الآراء في سياق الكلام، فيذكر أبو الفتح الإسكندري بعض تلك الآراء بقوله: "تقولون خالق الظلم ظالم ... تقولون خُيِّر فاختار ... إن ذُكر الميزان قلتم: من الفرغ كفتاه. وإن ذكر الكتاب قلتم: من القد دفتاه"[١٠٩]

ففي هذه المقاطع يقوم أبو الفتح الإسكندري بإخبار المتلقي بتلك الآراء إخبارًا مباشرًا.

الفعل الوظيفي:

وهو الفعل المراد تحقيقه من خلال استخدام عدة ألفاظ داخل الحوار، وعادةً ما يُعول المتلفظ – عند ذكره لتلك على الألفاظ – على فطنة المتلقي وثقافته في إدراك الغاية من استخدام تلك الألفاظ.

فعندما يقول أبو الفتح الإسكندري لعيسى بن هشام وأبي داود المتكلم: "أتعلمون يقينًا. أنكم أخبثُ من إبليسَ دينًا. قال ربِّ بما أغويتني. فأقرَّ وأنكرتم. وآمن وكفرتم"[١١٠]، فهو هنا يعتمد على ثقافة المتلقي في أن يتفطن أنه يحيله على قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٣٩﴾ [الحِجر:٣٩].

الفعل التأثيري:

إن هذا الفعل يبحث في مدى تأثير الحوار الجدلي في المتلقي، وكيف استطاع بديع الزمان الهمذاني بوصفه الكاتب الحقيقي للمقامات التأثيرَ على المتلقي لكي يجعله يقتنع بآرائه وردوده على المعتزلة التي بثّها من خلال إنشائه هذه المقامة على لسان أبي الفتح الإسكندري.

إن اختيار (المارستان) ليكون فضاءً مكانيًا يدور فيه الجدال الديني يحمل عدة دلالاته تأثيرية يمكن رصدها فيما يلي:

- إشعار المتلقي أن المعتزلة مصابون بلوثة عقلية؛ لأنهم من رواد أماكن معالجة المجانين.

---

[١٠٩] مقامات بديع الزمان الهمذاني، شرح: محمد عبده، ص١٤٨ – ص١٥٠

[١١٠] المرجع نفسه، ص١٤٨

- تبيان أن المجانين – وهم الذين لا يملكون منطقًا مفهومًا ولا معيارًا معلومًا – لم يستطيعوا قبول آراء المعتزلة، فكيف الحال إذن بالعقلاء.
- إسقاط آراء المعتزلة وذلك بعد أن لم يستطيعوا الرد على مجنون استطاع إحراجهم والرد عليهم، بل إنهم في النهاية قد وافقوه فيما ذهب إليه.

ومن الإشارات الطريفة التي تحمل فعلًا تأثيرًا في هذه المقامة هي الإشارة والتركيز على اسم الشهرة لأبي داود العسكري وهو اسم (أبي داود المتكلم)، فعلى الرغم من كون (متكلمًا) إلا أنه لم يتكلم في هذه المقامة أي كلمة مع أبي الفتح الإسكندري، ولعل هذه من المفارقات التي أراد بديع الزمان الهمذاني التأثير بها على المتلقي.

وفي نهاية هذه المقاربة التداولية للحوار الجدلي في المقامة المارستانية كان لابد من الوقوف على بعض الوظائف التي أنتجها الحوار الجدلي في مستوى المقتضى الإيحائي؛ لأن "أية دراسة تتخذ الحوار موضوعًا لا تستطيع غض النظر عن فكرة هيمنة الحوار وظيفيًا... فمثلما للسرد وظائف يضطلع بها، فللحوار أيضا وظائفه المخصصة له"[١١١] والوظائف الأبرز التي ضمنها بديع الزمان الهمذاني في المقامة المارستانية هي:

الوظيفة الإيديولوجية:

فقد كانت هذه الوظيفة قائمة على ترسيخ المفاهيم الخاصة بأهل الحديث، والرد على من سواهم ممن يعارضونهم في آرائهم، وإذا ما تبين أن "البديع كان سنيًا متعصبًا، وأكثر من ذلك أنه كان من رجال الحديث لم نستشعر غرابة في الأمر حينما يرد على المعتزلة بهذه الحجج المصحوبة بالعنف الشديد والنكر الحانق"[١١٢]

الوظيفة الحجاجية:

---

[١١١] الحوار في الخطاب، الطاهر الجزيري، ص٣١٨

[١١٢] بديع الزمان الهمذاني (رائد القصة العربية والمقالة الصحفية)، مصطفى الشكعة، عالم الكتب، لبنان، ١٩٨٣م، ص٣٦١

حيث يتبين أن المقامة المارستانية قد انبنت على الحوار الجدلي القائم على الحجج، ففي هذه المقامة "يعرض بديع الزمان لتسفيه عقائد المعتزلة والرد عليها بقوة وعنف. وبديع الزمان سني المذهب ومذهب السنة يأخذ أصول العقائد بسهولة في غير ما تعنت أو تحميلها ما لا تطيق، وليس ذلك للمعتزلة. وبديع الزمان يرد على المعتزلة بلسان رجل مجنون وفي ذلك منتهى النيل منهم والازدراء بمبادئهم"[١١٣].

[١١٣] المرجع نفسه، ص٣٥٩

الفصل الرابع:

الحوار السجالي

المبحث الأول: مفهوم الحوار السجالي

المبحث الثاني: تداولية الحوار السجالي في المقامة الدينارية

المبحث الأول: مفهوم الحوار السجالي:

يمثل السجال في الدراسات الحديثة شكلًا من أشكال التفاعل الحواري الذي تتم ممارسته بشكل يومي في الحياة الاجتماعية، وربما تمايز السجال عن غيره من أنواع التفاعل الحواري بأن الغالب فيه هو افتقاده للقصدية وبالتالي عدم وجود شروط خاصة يجب توفرها في أطراف الحوار فيه، وقبل الخوض في تفاصيل الحوار السجالي سيتم التطرق في بادئ الأمر لمفهوم السجال قديمًا وحديثًا.

تحيل كلمة السجال في اللغة على معنيين اثنين، هما (التباري، التنافس)، ويوجد هذان المعنيان في مجالين اثنين، (الاستقاء، الحرب).

فقد ذكر ابن منظور في مجال الاستقاء أن "سِجال جمع سِجْل وسُجل وهو الدلو الضخمة المملوء ماء، وساجل الرجلَ بارهُ. وأصله في الاستقاء، أَصل المُسَاجَلة أَن يَسْتَقِيَ ساقيان فيُخْرج كُلُّ واحد منهما في سَجْله مثل ما يُخْرج الآخر، فأَيُّهما نَكَل فقد غُلِبَ، فضربته العرب مثلاً للمُفاخَرة، فإِذا قيل فلان يُساجِل فلاناً، فمعناه أَنه يُخْرِج من الشَّرَف مثل ما يُخرِجه الآخرُ، فأَيهما نَكَل فقد غُلِب"[١١٤]

أما في مجال الحرب فقد ذكر أيضا: "وفي حديث أَبي سفيان: أَن هِرَقْلَ سأَله عن الحرب بينه وبين النبي ﷺ فقال له: الحَرْب بيننا سِجَالٌ؛ معناه إِنا نُدَالُ عليه مَرَّة ويُدَالُ علينا أُخرى"[١١٥]

وبالتالي فإن خطاب السجال هو "وليد فعل السجال ومماثله في التباري والتنافس والرغبة في الغلبة والفلج على الخصم. فالسجال قائم على صراع بين طرفين إنْ بالفعل في الحرب الحقيقة، وإنْ بالقول في الحرب

---

[١١٤] لسان العرب، ابن منظور، مادة (س.ج.ل)

[١١٥] المرجع نفسه، مادة (س.ج.ل)

الاستعارية، لذلك اقترن في مدونة الأدب بعبارات دالة على الحرب والغلبة والمناضلة"[١١٦]

وبناء على معنى التنافس والتباري فقد ظهر السجال في العديد من مدونات التراث الأدبي العربي مثل كتاب "كليلة ودمنة" لابن المقفع وكتاب "الامتاع والمؤانسة" للتوحيدي وكتاب "رسالة الغفران" للمعري وكذلك في "مقامات الهمذاني" لبديع الزمان الهمذاني وغيرها.

لكن معنى السجال تطور ولم يتوقف عند هذا المعنى، فقد كانت هذه الفنون "مشروطة بأساليب وآداب متى خرج عنها المتساجلان سقطا في ضرب ثان من السجال يقترن فيه بالخصام والحرب من قبيل المنازعة والمخاصمة والمهاترة والمماتنة والمسالطة والمباطلة والقبقة وغير ذلك من المصطلحات/المفاهيم التي تواترت في تراثنا الأدبي القديم عامة"[١١٧].

أما في الدراسات الحديثة فقد ظهر السجال بمفهومه الحديث على أنه "نظام في الخطاب يكون فيه للكلام مقصد دحضي قوي. الخطاب السجالي خطاب استنقاص أي إنه يهاجم هدفًا ويضع في خدمة هذه القصد العملي المهيمن ... كامل جهاز الأساليب البلاغية والحجاجية"[١١٨]

كما عُرّف أيضًا على أنه " تلك الاستراتيجية البلاغية التي تتجاوز حد المناظرة أو المناقشة في مستواها البسيط بطرق عدة، ويعود في أصله في البلاغيات الكلاسيكية القديمة ... إذ يعتمد على خطاب حجاجي يتطلع إلى وضعية القضاء على حجة الخصم إن لم يكن يتطلع إلى القضاء على الخصم نفسه"[١١٩]

وفي الخطاب الحواري السجالي "يدّعي كل طرف من أطراف الحوار امتلاك الحقيقة، ويتهم الآخر بجهلها. وتتردد في هذا الخطاب عبارات التهاجي والمماحكة، وينتهي في أغلب الأحيان بالقطيعة بين

---

[١١٦] السجال في الأدب العربي (أشكاله ووظائفه)، الباشا العيّادي، مجلة الأزمنة الحديثة، ع: ٥، ٢٠١٢م، ص١٩٩

[١١٧] المرجع نفسه، ص٢٠٠

[١١٨] معجم تحليل الخطاب، باتريك شارودو ودومينيك منغنو، ص٤٢٧

[١١٩] السجال (بدايات وخطابات)، معجب العدواني، صحيفة الرياض، المملكة العربية السعودية، ع: ١٤٩٨٣، بتاريخ ٢-٧-٢٠٠٩م

المتحاورين"[١٢٠]

ومن خلال ما سبق يتضح أن العلاقة بين أطراف الحوار السجالي هي علاقة غير ودية ولا يقف أطرافها على أرضية مشتركة في الغالب، كما تتسم تلك العلاقة بالعدوانية والشراسة. ورغم ذلك كله إلا أن الحوار السجالي لا ينهض إلا وفق معايير معينة، هي:[١٢١]

- أن يكون المتحاوران في وضع خطابي متكافئ، وهما عند الاقتضاء عادةً ما يؤجلان الحديث عن وضعهما الاجتماعي غير المتكافئ كي يلعبا دورًا تفاعليًا متماثلًا.
- أن يسعيا إلى المحافظة على المعلومات أو الحجج القاطعة وإلى رؤية الحقيقة، ويرفعا هذه الصفة عن شريكهما. ويتظاهر كل منهما بامتلاك معلومات قاطعة وحجج وينفي هذه الصفة عن شريكه.
- أن هذا التبادل عادة ما يتكون من نمط: تقرير / تقرير. فالتقرير الثاني ليس القيمة نفسها بالنسبة إلى الأول من جهة الوضع، فهو يجب أن يُعد في الغالب كتقرير مضاد أو مدحوض.
- أن يكون كلا المتحاورين مكلفًا بفعل الخطاب ذاته.
- لا يمكن أن يؤدي المقطع إلى الاتفاق، فليس هناك إمكانية لبلوغ حل داخل هذا المخطط.

وبالتالي فإن الحوار السجالي يكون بين طرفين "لا يبحثان عن التفاهم عبر التحادث أو المناقشة التي تُقرع فيها الحجة بالحجة، وإنما يظل الحوار مفرغًا من قيمته الفكرية ويتحوّل إلى سِباب وثرثرة لفظية"[١٢٢].

---

[١٢٠] أسلوبية الوصف والحوار، عامر الحلواني، ص٨٨

[١٢١] الحوار في الخطاب، الطاهر الجزيري، ص٧٠

[١٢٢] الحوار في الخطاب، الطاهر الجزيري، ص٧١

المبحث الثاني: تداولية الحوار السجالي في المقامة الدينارية:

لقد ظهر الحوار السجالي في بضعة مواضع داخل مقامات الهمذاني، ولأن مقامات الهمذاني تستقي من الحياة الاجتماعية الكثير من الأفكار في سبيل بنائها الفني، فقد ساهم الحوار السجالي في دفع عملية القص داخلها.

ولكن الحوار السجالي ظهر جليًّا في المقامة الدينارية، بالإضافة إلى الوظائف التداولية المتعددة فيها، لذلك فقد كانت هذه المقامة حقلًا مناسبًا لإجراء المقاربة التداولية.

نص المقامة:

المَقَامَةُ الدِّيْنَارِيّة[١٢٣]

حَدَّثَنَا عِيسَى بْنُ هِشامٍ قَالَ: اتَّفَقَ لي نَذْرٌ نَذَرْتُهُ في دِينَارٍ أَتَصَدَّقُ بِهِ عَلى أَشْحَذِ رَجُلٍ بِبَغْدَادَ، وَسَأَلْتُ عَنْهُ، فَدُلِلْتُ عَلى أَبِي الفَتْحَ الإِسْكَنْدَرِيّ، فَمضَيْتُ إِلَيْهِ لأَتَصَدَّقَ بِهِ عَلَيْهِ، فَوَجَدْتُهُ فِي رُفْقَةٍ، قَدْ اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ في حَلَقَةٍ، فَقُلْتُ: يَا بَني سَاسَانَ، أَيُّكُمْ أَعْرَفُ بِسِلْعَتِه، وَأَشْحَذُ في صَنْعَتِهَ، فَأُعْطِيهُ هذَا الدِّينَارَ؟ فَقَالَ الإِسْكَنْدَرِيُّ: أَنَا، وَقَالَ آخَرُ مِنَ الجَمَاعَةِ: لاَ، بَلْ أَنَا. تَنَاقَشَا وَتَهَارَشَا حَتَّى قُلْتُ: لِيَشْتُمْ كُلٌّ مِنْكُمَا صَاحِبَهُ، فَمَنْ غَلَبَ سَلَبَ، وَمَنْ عَزَّ بَزَّ، فَقَالَ الإِسْكَنْدَرِيُّ: يَا بَرْدَ العَجُوزِ، يَا كُرْبَةَ تَمُّوزَ، يَا وَسَخَ الكُوزِ، يَا دِرْهَماً لا يَجُوزُ، يَا حَدِيثَ الْمَغِّنينَ، يَا سَنَةَ الْبُوسِ، يَا كَوْكَبَ النَّحُوسِ، يَا وَطْأَ الكابُوسِ، يَا تُخْمَةَ الرَّؤُوسِ، يَا أُمَّ حُبَيْنِ[١٢٤]، يَا رَمَدَ العَيْنِ، يَا غَدَاةَ الْبَيْنِ، يَا فِرَاقَ المُحِبَّيْنِ، يَا سَاعةَ الحَيْنِ يَا مَقْتَلَ الحُسَيْنِ يَا ثِقَلَ الدَّيْنِ يَا سِمَةَ الشَّيْنِ يَا بَرِيدَ الشُّومِ يَا طَرِيدَ اللُّومِ يَا ثَرِيدَ الثُّومِ يَا بَادِيةَ الزَّقُّومِ يَا مَنْعَ المَاعُونِ يَا سَنَةَ الطَّاعُونِ يا بَغْيَ العَبِيدِ، يَا آيَةَ

---

[١٢٣] مقامات بديع الزمان الهمذاني، شرح: محمد عبده، ص٢٤٥–ص٢٥١

[١٢٤] أم حبين: دويبة أكبر من الوزغة.

الوَعِيدِ، يَا كَلامَ المُعِيدِ، يَا أَقْبَحَ مِنْ حَتَّى، في مَوَاضِعَ شَتَّى، يَا دُودَةَ الكَنِيفِ، يَا فَرْوَةً فِي المَصِيفِ، يَا تَنَحْنُحَ المُضِيفِ إِذَا كُسِرَ الرَّغِيفُ، يَا جُشَاءَ المَخْمُورِ، يَا نَكْهَةَ الصُّقُورِ، يَا وَتِدَ الدُّورِ، يَا خُذْرُوفَةَ القُدُورِ، يَا أَرْبُعَاءَ لاَ تَدُورُ، يَا طَمَعَ المَقْمُورِ، يَا ضَجَرَ اللِّسَانِ، يَا بَوْلَ الخِصْيَانِ، يَا مُؤَاكَلَةَ العُمْيَانِ، يَا شَفَاعَةَ العُرْيَانِ، يَا سَبْتَ الصِّبْيَانِ، يَا كِتَابَ التَّعَازِي، يَا قَرَارَةَ المَخَازِي، يَا بُخْلَ الأَهْوَازِي، يَا فُضُولَ الرَّازِي، واللهِ لَوْ وَضَعْتَ إِحْدَى رِجْلَيْكَ عَلى أَرْوَنْدَ، وَالأُخْرَى عَلَى دُمَاوَنْدَ[١٢٥]، وَأَخَذْتَ بِيَدِكَ قَوْسَ قُزَحَ، وَنَدَفْتَ الغَيْمَ فِي جِبَابِ المَلائِكَةَ، مَا كُنْتَ إِلاَّ حَلاَّجاً.

وَقَالَ الآخَرُ: يَا قَرَّادَ القُرُودِ، يَا لَبُودَ اليَهُودِ: يَا نَكْهَةَ الأُسُودِ، يَا عَدَماً فِي وُجُودٍ، يَا كَلْباً فِي الهِرَاشِ، يَا قِرْداً فِي الفِرَاشِ، يَا قَرعِيَّةً بِمَاشٍ[١٢٦]، يَا أَقَلَّ مِنْ لاشٍ، يَا دُخَانَ النِّفْطِ، يَا صَنَانَ الإِبْطِ، يَا زَوَالَ المُلْكِ، يَا هِلاَلَ الهُلْكِ، يَا أَخْبَثَ مِمَّنْ بَاءَ بِذُلِّ الطَّلاَقِ، وَمَنْعِ الصَّدَاقِ، يَا وَحْلَ الطَّرِيقِ، يَا مَاءً عَلى الزِّيقِ يَا مُحَرِّكَ العَظْمِ يَا مُعَجِّلَ الهَضْمِ يا قَلَحَ[١٢٧] الأَسْنَانِ، يَا وَسَخَ الآذَانِ، يَا أَجَرَّ مِنْ قَلْسٍ[١٢٨]، يَا أَقَلَّ مِنْ فَلْسٍ، يَا أَفْضَحَ مِنْ عَبْرَةٍ، يَا أَبْغَى مِنْ إِبْرَةٍ، يَا مَهَبِّ الخُفِّ، يا مَدْرَجَةَ الأَكُفِّ، يَا كلِمَةَ لَيْتَ، يا وَكْفَ البيْتِ، يَا كَيْتَ وَكَيْتَ، واللهِ لوْ وَضَعْتَ اسْتَكَ عَلَى النُّجُومِ، وَدَلَّيْتَ رِجْلَكَ في التُّخُومِ، وَاتَّخَذْتَ الشِّعْرَى خُفّاً، وَالثُّرَيَّا رَفّاً، وَجَعَلْتَ السَّماءَ مِنْوَالاً، وَحِكْتَ الهَوَاءَ سِرْبالاً، فَسَدَّيْتَهُ بِالْنَّسْرِ الطَّائِرِ، وَأَلْحَمْتَهُ بالفَلَكِ الدَّائِرِ، ما كُنْتَ إِلاَّ حَائِكاً.

قَالَ عِيسَى بْنُ هِشامٍ: فَوَ اللهِ مَا عَلِمْتُ أَيَّ الرَّجُلَين أُوتِرُ؟! وَمَا مِنْهُما إِلاَّ بَدِيع الْكَلاَمِ، عَجِيبُ المَقَامِ، أَلَدُّ الخِصَامِ، فَتَرَكْتُهما، وَالدِّينَارُ مُشاعٌ بَيْنَهُمَا، وانْصَرَفْتُ وَمَا أَدْرِي مَا صَنَعَ الدَّهْرُ بِهِمَا.

إذا ما نُظر إلى المقام التلفظي لهذه المقامة لوُجد أنها تقع داخل دائرة الحوار السجالي، فهي تتحدث

---

[١٢٥] أروند ودماوند: جبلان الأول في ناحية همذان والثاني بناحية الري.

[١٢٦] قرعية بماش: طعام يتخذ من القرع.

[١٢٧] قلح الأسنان: وسخها ودرنها وما يعلوها من اصفرار أو اخضرار.

[١٢٨] القلس: حبل يتخذ من الليف تربط به السفن وتُجر.

عن أن عيسى بن هشام قد نذر نذرًا في دينار يتصدق به على أشحذ رجل ببغداد، وحين سأل عن ذلك الرجل دلّه الناس على أبي الفتح الإسكندري، فمضى إليه فوجده بين مجموعة من الناس المتحلقين حوله، فسأل عن أشحذ رجل فيهم لكي يعطيه الدينار، فقال أبو الفتح الإسكندري: أنا، وقال رجال آخر: أنا. فطلب عيسى بن هشام أن يشتم كل واحد منهما صاحبه، ومن تكون له الغلبة في السب يكون الدينار من نصيبه، فبدأ الإسكندري مستعرضًا فنونه اللغوية في السباب، الذي جاء بصيغة النداء الموجه للآخر، وكل نداء يكون مقرونًا بسبة أو مثلبة أو عار، ومما قال: "يا برد العجوز، يا كربة تموز، يا وسخ الكوز، يا درهمًا لا يجوز، يا حديث المغنين، يا سنة البؤس، يا كوكب النحوس، يا وطأ الكابوس، يا تخمة الرؤوس، يا أم حُبين، يا رمد العين، يا غداة البين، يا فراق المحبَّين، يا ساعة الحين، يا مقتل الحسين، يا ثقل الدين ..."[١٢٩]، وهكذا تستمر الشتائم المتنوعة التي تشمل الجانب الخلقي والخُلُقي في الآخر، ثم يختم تلك الشتائم بتصوير فني يصور فيه الآخر بأنْ لا قيمة له مهما بالغ في إعلاء شأن نفسه، فيقول له: "والله لو وضعت إحدى رجليك عل أرْوَنْد، والأخرى على دُمَاوَنْد، وأخذت بيدك قوس قزح وندفت الغيم في جباب الملائكة ما كنت إلا حلاجًا"[١٣٠].

ثم ينطلق الرجل الآخر لينسج شتائمه وسبابه على نفس منوال أبي الفتح، مستعرضًا قدرته اللغوية في ابتكار الشتائم التي تشمل كذلك الجانب الخلقي والخُلُقي لأبي الفتح، فيقول مثلًا: "يا قرّاد القرود، يا لبود اليهود، يا نكهة الأسود، يا عَدَما في وجود، يا كلبًا في الهراش، يا قردًا في فراش، يا قرعيّةً بماش، يا أقلَّ من لاش، يا دخان النفط، يا صنان الإبط، يا زوالَ الملك، يا هلال الهلك، يا أخبث ممن باء بذل الطلاق، ومنع الصداق، يا وحل الطريق، يا ماء على الريق، يا محرك العظم، يا معجل الهضم، يا قلح الأسنان، يا

---

[١٢٩] مقامات بديع الزمان الهمذاني، شرح: محمد عبده، ص٢٤٦، ص٢٤٧

[١٣٠] المرجع نفسه، ص٢٤٩

وسخ الآذان ..."[١٣١]، وهكذا يستمر في سوق الشتائم حتى ينتهي بتصوير فني يحتقر فيه شخص أبي الفتح، حيث يقول: "والله لو وضعت استك على النجوم، ودليت رجلك في التخوم، واتخذت الشعرى خفّا، والثريا رفّا، وجعلت السماء منوالًا، وحكت الهواء سربالًا، فسدّيته بالنسر الطائر، وألحمته بالفلك الدائر، ما كنت إلا حائكًا"[١٣٢].

وبعد أن ينتهي كلا الرجلين في استعراض قدرته اللغوية وثقافته العلمية في الحط من شأن خصمه، يقف عيسى بن هشام موقفًا حائرًا، إذ يرى أن كلا الرجلين يستحق الفوز بالدينار، ثم يتركهما والدينار مشاع بينهما ولا يدري ما صنع الدهر بهما.

بعد استعراض المقامة الدينارية من حيث مقامها التلفظي يتبين أنها اتخذت من الحوار السجالي مدخلًا تواصلًيا ساهم في دفع عملية القص، ولأن الغاية تنافسيةٌ بين أبي الفتح الإسكندري والرجل الآخر، وحيث إن مدار التنافس والتباري هو القدرة اللغوية في السباب والشتائم، فقد نتج عن ذلك كله حوار سجالي تفنن فيه كلا الرجلين في استخدام الأساليب اللغوية المتنوعة في محاولة الظفر بالجائزة.

كان هذا هو المقام التلفظي للمقامة الدينارية، وحيث المقام التلفظي يمثل العتبة الأولى لفهم النص، فإن عملية التحليل لن تتوقف عنده، بل ستتقدم خطوة إلى الأمام في محاولة للكشف أكثر عن خبايا هذه المقامة، فكان المقام القرائي هو الخطوة القادمة للتحليل، حيث سترمي المقاربة التداولية إلى فهم لغة المقامة الدينارية بوصفها بُعدا تواصليًا وموضوعًا إجرائيًا يصلح لإنجاز عدد من الأعمال التداولية.

---

[١٣١] المرجع نفسه، ص٢٥٠

[١٣٢] مقامات بديع الزمان الهمذاني، شرح: محمد عبده، ص٢٥١

أ. البُعد التواصلي:

يتمثل البعد التواصلي من خلال لغة الموقف، حيث تلتزم هذه اللغة بشروط سلامة التواصل بين أطراف الحوار (أبو الفتح الإسكندري، الرجل) بوصفهما طرفي المساجلة اللذين يتباريان للفوز بالجائزة، و(عيسى بن هشام) بوصفه محكّمًا بينهما، ومن أجل ذلك فقد انبنى الحوار في هذه المقامة على افتراض مبدئي يفيد بأن الأطراف الثلاثة للحوار لا تحقق أهدافها التواصلية إلا من خلال مراعاة مبادئ بول غرايس الخمسة الخاصة بسلامة التعبير، وبالتالي فقد تحققت تلك المبادئ على هذا النحو:

مبدأ التعاون:

لقد تحقق هذا المبدأ من خلال قبول طرفي المساجلة بشرط المباراة الذي وضعه عيسى بن هشام، فهذا القبول يدل على إقرار من طرفي المساجلة بأنهما متكافئان من حيث أهلية المباراة، فحتى لو أن كل طرف منهما يرى في نفسه الأفضلية والقوة، إلا أنه يرى في نظيره الكفاءة في المجاراة، وهذا الأمر يتبين من كلام عيسى بن هشام عندما وصف ردة فعلهما تجاه بعضهما قبل انطلاق المباراة، حيث قال: "يا بني ساسان أيكم أعرف بسلعته، وأشحذ في صنعته، فأعطيه هذا الدينار. فقال الإسكندري: أنا. قال آخر من الجماعة: لا بل أنا. تناقشا وتهارشا. حتى قلت: ليشتم كل منكما صاحبه، فمن غلب سلب، ومن عز بز"[١٣٣]

فهذا يدل على أن طرفي المساجلة قد حققا مبدأ التعاون من تناقشهما وتهارشهما، وكذلك خلال موافقتهما على طلب عيسى بن هشام، إذ لو أن أحدًا منهما رأى في خصمه قلّة الكفاءة لما تناقش معه ولما قبل بشرط عيسى بن هشام.

مبدأ الكم:

من خلال السجال الذي دار بين أبي الفتح الإسكندري والرجل، يتضح أن أبا الفتح الإسكندري كان له النصيب الأكبر في الحديث، حيث كان عدد الجمل التي تلفظ بها في هذه المقامة هو خمس وأربعون جملة

---

[١٣٣] مقامات بديع الزمان الهمذاني، شرح: محمد عبده، ص٢٤٦

مبدوءة بحرف النداء (يا) بالإضافة إلى عبارة تصويرية واحدة، بينما كان عدد الجمل التي تلفظ بها الرجل هو ثمان وعشرون جملة مبدوءة بحرف النداء (يا) بالإضافة إلى عبارة تصويرية واحدة. ومع وجود هذا التفاوت في الأرقام إلا أنه يمكن القول بأن الحوار السجالي في هذه المقامة كان محققًا لمبدأ الكم، وذلك لاعتبارين اثنين أولهما أن هناك جملًا وعبارات تم حذفها من قبل شارح المقامات (محمد عبده) الذي رأى في تلك الجمل ما يستعاب منه ويُستقبح ذكره، حيث قال في بداية شرحه لهذه المقامة: "نذكر من هذه المقامة ما لا يُتقذر منه ونترك منها كُليمات قليلات لهوانها على السمع وثقلها على الطبع"[١٣٤]، وقد وُجد هذا الحذف في باقي النسخ المحققة من مقامات بديع الزمان الهمذاني. وثانيهما هو ما ذكره عيسى بن هشام في نهاية المقامة من أنه حار في أيهما أولى بالفوز، حيث يقول: "فوالله ما علمت أي الرجلين أؤثر وما منهما إلا بديع الكلام، عجيب المقام، ألد الخصام"[١٣٥]. وهذا يدل على أن طرفي المساجلة كانا محققين لمبدأ الكم، إذ لو استأثر أحدهما بالحديث على حساب الآخر، لما وقع عيسى بن هشام في حالة التردد والحيرة بينهما.

مبدأ الصدق:

إن هذا المبدأ القائم على إيمان طرفي المساجلة بصدق ما يتلفظان به متحققٌ من خلال أساليب الاستعراض اللغوي التي تفنن كلٌّ منهما في استخدامها في هذه المقامة، فكل طرف منهما مؤمن بصدق قوله في الآخر من حيث إن هذا القول منسجم مع شرط المباراة ومحقق لقواعد اللعبة.

مبدأ المناسبة (الصلة):

تحقق هذا المبدأ من خلال التزام طرفي المساجلة بشرط المباراة، فجاء الملفوظ الذي تلفظا به متصلا بموضوع المباراة (سب الآخر)، وبالتالي فقد ساهم هذا الالتزام بتحقيق المبدأ في استمرار الحوار داخل

---

[١٣٤] مقامات بديع الزمان الهمذاني، شرح: محمد عبده، ص٢٤٥

[١٣٥] المرجع نفسه، ص٢٥١

المقامة وعدم انقطاعه.

لقد كانت لغة الموقف في هذه المقامة ناجحةً من خلال بعدها التواصلي الذي تحقق عن طريق أربعة من مبادئ بول غرايس الخمسة، بيد أن الاكتفاء بتحليل المقامة من خلال لغة الموقف لن يكون مؤثرًا في المتلقي بشكل كبير، ولكن أهميته الكبيرة تكمن في كونه يبرز عناصر الحوار في هذه المقامة التي جاءت كالتالي:

موضوع الحوار (سجال لغوي)

نوع العلاقة بين أطراف الحوار (التكافؤ)

الوسيلة التي تم اختيارها لنقل الموضوع (السباب المتبادل القائم على المساجلة اللغوية)

وعليه فقد كان اللجوء إلى البعد التداولي بوصفه البعد الآخر من أبعاد السياق ضرورةً لتحليل المقامة وذلك لأن البعد التواصلي لا يسمح بغير استنتاج المعنى المعلن في المقامة، حيث إنه عاجز عن استخلاص المعاني التي يقصدها مؤلف المقامات، وعاجز كذلك عن التفطن إلى الإيحاءات التداولية للمقامة، لأن تلك المعاني لا تتأتى إلا بالنظر في مجمل المكونات التداولية نظرةً تأليفية أساسها التفاعل بينهما، والنظر في ما تؤديه من وظائف ضمن السياق.

ب. البعد التداولي:

تتجلى أهمية البعد التداولي في قدرته على استجلاء المعاني المضمرة خلف المعاني الظاهرة، ونعني بذلك تلك المعاني التي عمد المؤلف إلى إخفائها عن عين القارئ الذي لا يملك القدرة التحليلية على استجلائها واستنباطها، وبالتالي يكون الهدف من المقاربة التداولية التي سيتم إجراؤها على المقامة الدينارية هو كشف تلك المعاني والوصول إلى الأسباب التي اضطرت المؤلف إلى اللجوء لهذا الأسلوب.

وحيث إن الحوار في المقامة الدينارية ينتمي إلى الحوار السجالي، فإن طرفي المساجلة قد اخترقا أعراف التواصل في عدة مواضع من المقامة، وهذا الخرق ترتب عليه فهم مخصوص لدى المتحاورين ولدى المتلقي، ومفاد هذا الخرق أن المقصود من الكلام هو الاقتضاء الإيحائي، وهذا يعني إحالة المتلقي – فضلاً عن المعنى المباشر المترتب على الحوار – على معنى إضافي هو المعنى المضمن في القول.

والمبدأ الذي تم اختراقه في هذه المقامة هو **مبدأ الكيف**، حيث إن بعض العبارات التي وردت داخل هذه المقامة لم تكن واضحة الدلالة – في تلقيها التواصلي – كونها داخلةً في حقل السباب والشتائم، والسبب في ذلك راجع إلى أن تلك العبارات تحيل على ثقافة معينة تعتمد على أن يكون لدى المتلقي (طرف المساجلة + عيسى بن هشام / قارئ المقامات) إلمامٌ بتلك الثقافة من أجل فهم مغزى المُتلفِّظ بتلك العبارات، وهذه الثقافة المتنوعة في هذه المقامة راجعة إلى أن بديع الزمان الهمذاني "قد قرأ القرآن الكريم، وألمَّ بأقوال المفسرين، وروى الحديث، وقصص العرب، وأمثالها، وأيامها، وروى الشعر العربي، ونقده، ووازن بينه، كما اطّلع على آثار أدباء عصره ومن سبقهم بزمن قصير أو طويل ... وهذه كلها مؤثرات هامة قد اشتركت في إعداد مادة المقامات، حتى لنستطيع أن نعتبر بعضها روافد هامة قد تجمعت وصبّت في هذا البحر الزاخر الذي أطلق عليه اسم المقامات"[١٣٦]

ويمكن حصر العبارات التي اخترقت مبدأ الكيف في عدة معارف ثقافية، هي:

---

[١٣٦] موسوعة أدب المحتالين، عبد الهادي حرب، ص٤١٤، ص٤١٥

- القرآن الكريم: حيث وردت في هذه المقامة عبارة سباب تلفّظ بها أبو الفتح الإسكندري موجهًا إيّاها للرجل الذي يساجله حيث قال: "يا مَنَع الماعون"، فهذه العبارة تحيل المتلقي على قوله تعالي: ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾ [الماعون:٧]، حيث إن الله تعالى قد توعد مانعي الماعون بالعذاب الشديد يوم القيامة، فكيف بمن كان هو سببَ ذلك المنع؟! (أي الرجل الذي يساجل أبا الفتح الإسكندري).

وبنفس الأسلوب يرد الرجل على أبي الفتح الإسكندري حين يقول له: "يا أخبث ممن باء بذل الطلاق، ومنع الصداق"، فهو يحيل على قوله تعالي: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٢٢٩﴾ [البقرة:٢٢٩]، فهو بهذه الإحالة يسبُّ أبا الفتح بأنه ظالم وذلك باعتبار أنه لا يُسرّح بإحسان ويستحل مال الصداق.

- التاريخ: حين سبّ أبو الفتح الإسكندري الرجل بقوله: "يا مقتل الحسين" فهو يحيل المتلقي على حدث تاريخي بارز زاد الفرقة بين المسلمين، فأبو الفتح الإسكندري يسب الرجل بأنه الموضع الذي قُتل فيه الحسين – عليه السلام – وهو "أشأمُ موضع لأنه أُريق فيه دمٌ بسيف ظالم أيُّ ظالم وهو دمُ مظلوم أيُّ مظلوم"[١٣٧].
- اللغة: من الشتائم التي تلفظ بها أبو الفتح الإسكندري في هذه المقامة هو قوله: "يا أقبحَ من حتّى، في مواضع شتى" وفي هذه العبارة يقول شارح المقامات: "المراد من حتى هذا الحرف. ومسائله من مشكلات النحو حتى قال الفراء: أموت وفي نفسي شيء من حتى"[١٣٨]، فأبو الفتح الإسكندري يريد من ذلك أن المُخاطَب مضطربُ الهوية ولا يمكنه تصنيفه بين المخلوقات مثلما أن (حتّى) أتعبت

---

[١٣٧] مقامات بديع الزمان الهمذاني، شرح: محمد عبده، ص٢٤٧

[١٣٨] المرجع نفسه، ص٢٤٨

علماء اللغة في فهمها وتصنيفها وإعراب ما بعدها، ويسب أبو الفتح الإسكندري الرجلَ كذلك بقوله: "يا فضولَ الرازي" وهو بهذا يعني أنه زائد على الوجود كما أنه لا أصل له؛ لأن "الرازي منسوب إلى مدينة الري من مدن الديلم ... وزادوا في النسبة إليها زايًا كما زادوها في مروزي نسبة إلى مرو الشاهجان. والفضول الزيادات التي لا خير فيها"[١٣٩]

وفي باب اللغة أيضًا يرد الرجل على أبي الفتح الإسكندري بقوله: "يا كلمة ليت" فكما أن كلمة ليت تدل على طلب ما لا طمع فيه، فهي كذلك " لا تقال إلا عند الندامة على فائت أو التلهف على مفقود"[140] فالرجل يسب أبا الفتح بأنه لا فائدة منه إذ إنه يزيد التحسر والندم.

- الفلك: قام الإسكندري في معرض سبابه مع الرجل بالتلفظ بعبارات تم استقاؤها من علم الفلك والطقس حيث قال: "يا برد العجوز، يا كربة تموز" وهو يرمي بذلك إلى أشد أوقات البرد وأشد أوقات الحر فبرد العجوز "يشتد غالبًا ويزداد ثقلًا بمجيئه في آخر الشتاء عند استعداد الناس للقاء الربيع. وايام العجوز سبعة: أربعة من آخر شباط الرومي وثلاثة من أول آذار"[١٤١]، وأما تموز فهو "اسم من أسماء الأشهر الرومية وهو يأتي في أشد ما يكون من القيظ ويعرض فيه أن يحتبس الهواء ليلًا حتى لا يجد الحيوان متنفسًا من شدة الحر وركود الهواء فهذه هي الكربة التي يشير إليها وهي أثقل شيء على النفس"[١٤٢]

كما تظهر في هذه المقامة عدة أفعال تداولية يحققها القول الصادر عن طرفي المساجلة بوصفهما مستعملين للغة، فالفعل الوظيفي يتجلى من خلال كمية العبارات التي تساجل بها طرفا الحوار، فهي

---

[١٣٩] المرجع نفسه، ص٢٤٩

[١٤٠] مقامات بديع الزمان الهمذاني، شرح: محمد عبده، ص٢٥١

[١٤١] المرجع نفسه، ص٢٤٦

[١٤٢] المرجع نفسه، ص٢٤٦

عبارات تؤدي الفعل الوظيفي كونها التزمت بشرط المساجلة، بالإضافة إلى أن تلك العبارات كان لها فعل تأثيري من خلال التفنن في أدائها وحشدها بالعديد من الفنون اللغوية والمعارف الثقافية وذلك من أجل التأثير في المتلقي (عيسى بن هشام) وكسب استحسانه والفوز بالجائزة.

وأما على مستوى الحوار الموجه من بديع الزمان الهمذاني إلى متلقي المقامات فإن مِن الأعمال التداولية ذات الفعل التأثيري في هذه المقامة هي المهن التي يشتغل بها كلٌّ من أبي الفتح الإسكندري والرجل، فالأول يعمل حائكًا والآخر يعمل حلاجًا، وكلتا المهنتين من المهن البسيطة في المجتمع، وعليه فإن بديع الزمان الهمذاني يرمي إلى أن العلم الذي يملكانه لم يغنهما شيئا ولم ينفعهما في رزقهما، فهما على ما يملكانه من العلم والمعرفة إلا أنهما يعملان في مهن وضيعة علاوة على كونها مُكدّيين، والهمذاني بهذا التصور يعكس انطباعه تجاه مجتمعه، فإن "نفس الهمذاني المتأملة من الفروق الاجتماعية، ومن ظلم الناس للعلم والعلماء، وتفضيل المال على العلم، الأمر الذي يجعل العلماء متسولين، إذا كان هذا الشعور أولَ ملهمات المقامات فإن هناك دافعًا آخر لا يقل عنه شأنًا وخطورة وهو ظهور هذه الفئة من الناس يستجدون بالكلام المسجوع ويحتالون بالشعبذات ويخترعون ضروبًا من الحيل لاقتناص الأموال، وفتح الهمذاني عينيه على هذه الفئة فحفظ نوادرها وروى شعرها ... وبقي هذا الخاطر يراوده ويلح عليه حتى أخرجه في صورة المقامات"[١٤٣]

وفي ختام هذه المقاربة التداولية للمقامة الدينارية كان لابد من الوقوف على الوظائف التي أراد بديع الزمان الهمذاني إنجازها عبر الحوار السجالي فيها، وتلك الوظائف هي:

الوظيفة الانفعالية:

فبديع الزمان الهمذاني ذو شخصية انفعالية، فهو حاد الطباع، ناري المزاج، مر العداوة، مضطرب أشد

[١٤٣] موسوعة أدب المحتالين، عبد الهادي حرب، ص٤١٣

الاضطراب، يعيش في صراع دائم.[١٤٤]، وبناء على شخصيته الانفعالية هذه، بالإضافة إلى الواقع الاجتماعي الذي يعاني من قسوته على العلماء والأدباء، فقد نتج عن ذلك أنْ أصبح "الهمذاني سيءَ الظن بالناس جدا لا يكاد يثق بأحد مهم، كثيرَ الخوض في أعراضهم يُفحشُ ويُبذئ في بعض الأحيان دون النظر إلى قيمة المخاطب ومركزه الاجتماعي"[١٤٥]، وكذلك فهو "طويل اللسان في الشتم عنيف الهجاء إلى درجة البذاءة والفحش يشيع ذلك في معظم رسائله فلا عجب إذا وجدنا ذلك في بطله ومقامته ونخص منها المقامة الدينارية"[١٤٦]

الوظيفة التوثيقية:

لقد وثقت مقامات بديع الزمان الهمذاني العديد من المظاهر السياسية والاجتماعية والفكرية في عصره، فكما هو معلم أن القرن الرابع الهجري كان مليئًا بمجالس "اللهو التي يُخلع فيها العذار، وتفشو فيها الإباحة"[١٤٧] مما انعكس على التدين في المجتمع، حيث أصبح تدينًا ظاهريًا خاليًا من سمات الزهد والوقار، فهذا "الوزير المهلبي كان له ندماء يجتمعون عنده في الأسبوع ليلتين على اطّراح الحشمة والتبسط في القصف والخلاعة وهم ابن قريعة وابن معروف والقاضي التنوخي وآخرون، ما منهم إلا أبيض اللحية طويلها، وكذلك كان الوزير المهلبي، فإذا تكامل الأنس وطاب المجلس ولذ السماع وأخذ الطرب منهم مأخذه وهبوا ثوب الوقار للعقار ... ووضع في يد كل واحد منهم كأس من ذهب من ألف مثقال إلى ما دونها مملوءة شرابًا قطربليًا أو عكبريًا فيغمس لحيته فيها بل ينقعها حتى تتشرب أكثره ويرش بها بعضهم بعضًا ويرقصون أجمعهم"[١٤٨].

---

[١٤٤] موسوعة أدب المحتالين، عبد الهادي حرب، ص٣٧٢، ص٣٧٣

[١٤٥] المرجع نفسه، ص٣٧٦

[١٤٦] المرجع نفسه، ص٤١٠

[١٤٧] النموذج الإنساني في أدب المقامة، علي عبد المنعم عبد الحميد، ص٣٤

[١٤٨] بديع الزمان الهمذاني، مصطفى الشكعة، ص٢٣

وهذا التدين الظاهري المتفشي في ذلك العصر هو ما جعل بديع الزمان الهمذاني يصور في هذه المقامة استخفاف عيسى بن هشام بالعبادات، فالدينار الذي نذره عيسى بن هشام على نفسه شكرًا لله على نعمة أنعمها عليه، تحول إلى جائزة لمسابقة سجالية شرطها السباب والشتائم.